مذكرات قاض

من ملفات القضاء الأسري
الجزء الأول

بقلم
شادي مروان الدرّة

مُذكراتُ قاضٍ

الجزء الأول

من ملفات القضاء الأُسري

بقلم

شادي مروان الدرة

بسم الله الرّحمن الرحيم

المقدمة

كنتُ يومَها طالباً في إحدى الثّانويات الشرعيةَ، ودرستُ فيما درست على مقاعدِ الدراسةَ الكثيرَ الكثيرَ في أبوابَ الفقه.

وكم كانت مفاجأتي بل صدمتي كبيرةً عندما رأيتُ أنَّ الكثيرَ من الأبواب الفقهية باتَ معطّلاً في مجتمعنا الإسلامي.

ففقهُ المعاملاتِ الماليةِ معطّلٌ، وحلَّ محلّه القانونُ المدني وغيره من القوانين الأخرى، وهي مستمدّة من القوانين الغربية التي غزا رجالها أرضنا واستباحوا دمنا وعرضنا.

وفقهُ الجنايات معطّلٌ أيضاً، وحلَّ محلّه القانون الجنائي المستمد من القانون الفرنسي والبريطاني.

وكاشفتُ بما في نفسي مُدرسَ مادةِ الفقه، وكانَ رجلاً فاضلاً.

فقال لي-وبكل ثقة-: إنّ هذا الوضعَ لهو وضعٌ مؤقتٌ، ولاشكَّ عندي أنّه سيأتي ذاك اليومُ الذي سيعود فيه المسلمون لرشدهم، ويهجرون قوانين عدوّ الله وعدوهم، ويأخذون بشريعة ربّهم عزوجل.

فقلت في نفسي: ولكن متى سيكون هذا؟ وكيف سيكون هذا؟

ودارت الأيّامُ دورتها، وقامتْ في بلادنا تلكَ الأحداثُ التي بلغت أخبارها مشارقَ الأرض ومغاربها، وقد أتاحت لنا هذه الظروفُ الجديدة والمباركة-ولو إلى حين- أن نعود إلى شريعة ربنا عز وجل

وما أسرعَ ما ألقى الناسُ بتلك القوانين الغربية والغريبة عن ديننا وأعرافنا في القمامة التي جاءت منها.

وشاء الله لي أن أعمل َفي تلك الأيام في مجال القضاء، وتحقق كلام ذاك الأستاذ الفاضل.

وفي هذا الكتاب- بجُزْءَيه- بعضٌ من تلك القضايا التي كان لي شرف الفصل فيها على وفق شريعة الله عز وجل لا على تلك القوانين الغربية والغريبة عنّا.

وأستطيع بعد تلكَ السنوات الطوال في مجال القضاء أن أسجل هذه الملحوظات:

١- ثمة ضعفٌ واضح وخطير في الفقه المالي والجنائي عند الكثير من أهل العلم، ومردّ ذلك إلى انشغالهم أثناء طلب العلم في المعاهد والجامعات بأبواب الطهارة والأسرة فقط.
٢- ثمة جهل واضح وخطير بقواعد القضاء.
فطلابُ العلم الشرعي في معاهدهم وجامعاتهم لا يدرسون شيئاً ذا بال عن القضاء وأصوله وإجراءاته وهذا أمر متعمد من الحكومات لكي يُقصى أهل العلم الشرعي عن القضاء.
٣- لقد تعرضتِ الكثيرُ من الأحكام الشرعية للتشويه المتعمّد في أذهان المسلمين تشويهاً صدَّ المسلمين عن قبولها، ومن باب أولى عن العمل بها.
رغم أنهم يقرؤون تلك الأحكام في قرآنهم ويسمعونها وهم يصلّون خلف أئمتهم!

وكتبه
شادي مروان الدرة
دمشق المحروسة

١-سوءُ الاختيار

دخلا مكتب القاضي في أوّل الداخلين

أمّـا هـو: فكـانَ شـابّاً فـي الخامسـةِ والعشـرينَ مـن عمـره، طويـلَ القامـة، وسـيمَ الطلعـة، أسـودَ الشـعر، ولـه لحيـة سـوداء خفيفـة، ويبـدو عليـه التـأنق فـي لباسه وحديثه...

وأمّـا هـي: فكانـت امـرأة قـد غـادرت شـاطئ الثلاثـين مـن العمـر مبحـرةً نحـوَ الأربعـين، ولـم تكـن ذات حسـن أو جمـال، ولكـن يبـدو أنهـا امـرأةٌ ذاتُ مكـرٍ ودهـاء مـن النـوع الـذي يسـتطيعُ إغـواءَ وإغـراءَ الرجـال بهـا واصـطيادهم بشـباك أوثـقَ مـن شـباك الجمـال، فالجمـالُ صـنعُ الله، وأمـا الإغـواءُ والإغـراءُ فصـنيعةُ الشيطان أعاذنا الله منه بمنّه وكَرَمِه.

وجَلَسَا متقابلين

أمّـا هـو: فجلـس علـى يمـين القاضـي وعلـى مقربـة منـه مُطَـأطِئ الـرأس كأنمـا هـو عروسٌ ليلـةَ الزّفـاف، مُنكسـرَ الـنفس كجـالسٍ فـي عزاء، يلفه الحزن، ويغمره الأسى

وأمّـا هـي: فجلسـت واثقـةً بنفسـها كأنمـا اختبـرت هـذا النـوع مـن الجلـوس والمجـالس مـن قبـلُ ، وكـان فـي يـدها خـاتم تعبـث بـه كأنمـا هـوذاك الرجـل الـذي أمامهـا، وتحـدّ النظـر إليـه مـرة وإلـى القاضـي مرة أخرى وكأنها لا تبالي بشيء

وساد المجلس صمتٌ رهيب

وسـرعان مـا بـدّد القاضـي هـذا الصـمتَ الرهيـبَ عنـدما قـال مخاطبـاً لهمـا أتتحـدثان أنتمـا عمـا جئتمـا مـن أجلـه أم أحدثكما أنا عمّا جئتما من أجله؟

فأصـابهما التعجـب مـن كـلام القاضـي إذ كيـف لـه أن يعـرف قصتهما قبل أن يتحدثا؟

فقالا له معاً و بصوت واحد بل تحدث أنت.

قال القاضي:

أمّا أنتِ: فامرأةٌ قد سبق لك وأن تزوجتِ قبل زواجك من هذا الشاب ولعلك أنجبتِ أيضاً.

فقالـت لـه بكـل ثقـة وهـدوء وبـرود: نعـم مـرتين، وأنجبـتُ مـن كـل رجل ولداً ذكراً فأنا أم لصبيين.

قـال القاضـي: ولعلـك عنـدما تزوجـتِ مـن هـذا الشـاب قـد وعـدكِ أن يتكفل بكِ وبولديك.

فقالت مبادرةً: نعم ولهذا رضيتُ به-هكذا قالت-

وهنا التفت القاضي الى الشاب قائلاً:

وأمّـا أنـتَ: يـا هـذا فلعـلَ هـذه المـرأة هـي الزوجـةُ الأولـى فـي حياتك

قـال الشـاب : نعـم هـي الزوجـة الأولـى ،والحـبُ الأول فـي حيـاتي وكم كنت أودُ أن أكمل بقية حياتي معها.

قال القاضي: ولعلك قطعت لها وعداً لم تستطعِ الوفاء به.

قـــال الشـــاب: نعـــم ولا يخفـــى علـــى حضـــرة القاضـــي الظـــروف الصعبة التي تمرُ بها بلدتنا .

وهنا ابتسم القاضي قائلاً: ولعل أخرى قد طرقت باب قلبك.

قال الشاب: لا لا يا سيدي.

وهنـــا قاطعتـــه المـــرأة قائلـــة: إنـــه كـــاذب يـــا حضـــرة القاضـــي بـــل يوجـــد واســـمها فلانـــة وعمرهـــا تســـعةَ عشـــرَ عامـــاً وهـــي عزبـــاء أيضـــاً وقصيرة وليست ذات جمال و....

وقبـــل أن يـــدخل الزوجـــان فـــي مجادلـــة زوجيـــة لا تنتهـــي **قاطعهمـــا القاضي قائلاً**:

هل تدريان ما هي مشكلتكما؟

إن مشكلتكما ليست فيكما بل في سوء اختياركما لبعضكما.

أمّـــا أنـــتِ: فكـــانَ الأنســـب لـــكِ إذا مـــا أردتِ الـــزواج أن تصـــطادي عفـــواً أن تبحثـــي عـــن رجـــل متـــزوج فتعطيـــه بعضـــاً مـــن وقتـــك وتجعلـــي البـــاقي لـــكِ ولولـــديكِ، ويعطيـــكِ هـــو بعضـــاً مـــن مالـــه ووقتـــه ويجعل ما تبقى لزوجته ولأولاده.

وأمّـــا انـــتَ: فكـــان الأنســـب لـــكَ أن تقتـــرن بفتـــاة بكـــر تصـــغرك ســـناً ولـــم تختبـــر الرجـــال مـــن قبلـــك فتكـــون أنـــت الأول فـــي حياتهـــا ووالـــد عيالها.

إن حُسنَ الاختيار هو سر نجاح العلاقة الزوجية.

وهناك نوعان من الاختيار وكلاهما مطلوب:

أمّـــا النـــوع الأول : فهـــو الاختيـــارُ العـــام والـــذي يقـــوم علـــى تـــوفر عنصري الأخلاق والتدين الصحيح لا الشكلي ولا المغشوش.

وأمّـــا النـــوع الثـــاني: فهـــو الاختيـــارُ الخـــاص والـــذي يقـــوم علـــى توفر الاختيار الأنسب لحال كلٍّ من الزوجين.

وأشـــبه شـــيء بهـــذا هـــو اختيـــار الملابـــس فالشـــخص عنـــدما يـــذهب لاختيـــار ملابـــسَ لـــه لا يكتفـــي بـــأن

تكـون الملابـس سـاترةً لمـا يفتـرض سـترهُ بـل لابـد أن تكـون مناسـبة لصـاحبها لا واسـعة ولا ضـيقة، لا طويلـة ولا قصـيرة، ذات لـون يسـر صـاحبه، وذات سـعر وثمـن يسـتطيع بذلـه وهـو بعـد سـوف يسير بين الناس مرتدياً تلك الملابس.

يقول القاضي

ثـم إنـي خالعـتُ بينهمـا مخالعـةً رضـائية طلّـق فيهـا الـزوج زوجتـه ثلاثـاً بنـاءً علـى رغبتهـا ولـم تتنـازل إلا عـن بعـض مهرهـا **وأمّـا هـو:** فلـم تمـضِ مـدة حتـى جـاءني وهـو يريـد أن يعقـد علـى المـرأة مـن جديـد فأخبرتـه بأنهـا باتـت محرمـةً عليـه حتـى تـرتبط بآخر الى ما هو معلوم في هذا المقام فانصرف حزيناً.

وأمّـا هـي: فقـد رأيتهـا بعـد مضـي مـدة تسـمح بانقضـاء عـدتها تمسك بيد فريستها الرابعة.

٢-مَنْزلُ الزوجّية

رَجـلٌ بـلا رِجـلٍ، قصـيرُ القامَـة، واثـقٌ بنفسـه كـان أوّل الـداخلين الـى مكتـب القاضـي فـي صـباح ذلـك اليـوم وقـد ظـن القاضـي عنـدما رآه علـى تلـك الحالـة أنّـه صـاحب حاجـة لا صـاحب قضـية ولكـن سـرعانَ ما تبيّن للقاضي خلاف ذلك.

الرجـل الـذي بـلا رِجـلٍ: سـلام الله علـى القاضـي وصـبّحه الله بكـل خير.

القاضـي: وعليـك يـا هـذا السـلام والرحمـة والخيـر، خيـر إن شـاء الله.

الرجـل: -وبـدأ بعـرض قضـيته مباشـرةً-أنـا رجـلٌ متـزوج مـن امـرأة أرملـة وعنـدها ولـدان مـن زوجهـا المتـوفى وقـد وعـدتها بالإحسـان إليهـا والـى ولـديها اليتيمـين ومـا أرانـي إلا وقـد وفّيـت بـذلك رغبـةً فـي الأجـر مـن الله، ومحبـةً فيهـا، ولكـن رغـم ذلـك كلّـه طلبـت منـي أن أفارقهـا وأخّلـي سـبيلها، وهـا هـي ذي فـي الخـارج تنتظـر الإذن بالـدخول عليـك، وأنـا أرجـوك كـل الرجـاء أن تقنعهـا بـالتخلي عـن فكرتها والبقاء معي.

القاضـي: حسـناً حسـناً ،قـد سـمعْتُ منـك وجهـة نظـرك، فقـم وأدخـل زوجتـك لأسـمع منهـا، فـلا قضـاء قبـل السـماع مـن الطـرفين والسـماح لكل منهما أن يدلي بحجّته.

ودخلـت الزوجـةُ يكتنفهـا ولـداها الصـغيران اليتيمـان وقـد كانـت امـرأة قصـيرة القامـة نحيلـة البـدن، ولـم تـؤتَ أيَّ نصـيب مـن الجمـال غير أن الظاهر أنها أوتيت نصيباً من الرجال.

المرأة: السلام عليكم حضرة القاضي.

القاضي: وعليكِ السلام، اقعدي يا امرأة واسمعي مني ثم تكلمي، لقد حضر زوجكِ وأخبرني أنّه راغب بكِ وأنك راغبة عنه فما هو سبب طلبك الفراق منه؟

المرأة: لا يوجد سبب لا يوجد سبب ولكني لا أريده.

القاضي: هذا الكلام غير مقبول أبداً فالطلاق أبغض الحلال الى الله كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[1]

المرأة: قلت لك لا يوجد سبب لا يوجد سبب ولكني لا أريده

وحاول القاضي جاهداً إقناع المرأة بالعدول عن فكرتها ولكنه لم يفلح في ثنيها عن ذلك ولم يفلح في معرفة السبب رغم اعترافها بأنّه أحسن إليها والى ولديها الصغيرين اليتيمين ولم تضفْ إلا أنها تريد الطلاقَ والعودةَ إلى أهلها والتفرغَ لولديها.

القاضي-مخاطباً الرجل-: ها قد سمعتَ يا هذا ما قالته زوجتك

فما هو قولُك يا هذا بعدَ كل هذا؟

الرجل: ألا تراها لم تبدِ سبباً معقولاً للطلاق؟

القاضي: لا بل قد أبدت سبباً

وطلب القاضي من المرأة أن تغادر مكتبه ففعلت وخاطب الرجل قائلاً

القاضي: إنّها أحسّت أنها تسرعت بالارتباط بك وعلى كل حال فالعيش مع امرأة لا تريد زوجها لون-في رأيي-من ألوان العذاب ينبغي المسارعة في إنهائه بإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان.

الرجل: حسناً وماذا تقترح؟

القاضي: اقترح أن تتخالعا

الرجل: وما الخلع؟

---

[1] رواه أبو داوود وابن ماجه وحكم الحاكمُ بصحته

القاضـــي: الخلـــع صـــفقة بـــين الـــزوجين تتنـــازل فيـــه المـــرأة عـــن حقوقهـــا كلِّهـــا أو بعضـــها مقابـــل أن يخلـــي الـــزوج ســـبيلها، ويمكـــن للـــزوجين أن يعودا لبعضهما بعد الخلع بعقد جديد

الرجل: -وقد بدا عليه بعض الارتياح-حسناً حسناً كما تريد

القاضي: كما تريد هي لا أنا

الرجل ضاحكاً: نعم نعم

ودخلـــت الزوجـــة وتخـــالع الزوجـــان بـــأن تنازلـــت الزوجـــة عـــن كامـــل حقوقهـــا مـــن المقـــدم والمـــؤخر ونفقـــة العـــدّة مقابـــل أن يخلـــي الزوج سبيلها بطلقة واحدة بائنة.

وظـــنّ القاضـــي أن الأمـــر قـــد انتهـــى عنـــد هـــذا الحـــد ولكـــن المفاجـــأة كانـــت فـــي اليـــوم التـــالي للخلـــع مباشـــرة حيـــث حضـــر الزوجـــان المتخالعان من جديد

القاضي –متفاجئاً-: مالي أراكما هنا والابتسامة تعلو وجوهكما؟

الزوجان معاً: نريد أن نجدد العقد من جديد

القاضي: لا بأس ولكني أريد توضيحاً لما أراه

الـــزوج: لقـــد كانـــت المشـــكلةُ الحقيقيـــةُ عنـــد زوجتـــي هـــي المنـــزل فأنـــا وزوجتـــي نتشـــارك مـــع أســـرتي منـــزلاً واحـــداً وهـــي تريـــد منـــزلاً مستقلاً.

القاضـــي: إنّ مـــن حـــق كـــل زوجـــةٍ علـــى زوجهـــا أن تنفـــرد مـــع زوجهـــا بمنـــزل مســـتقل لا يشـــاركهما فيـــه أحـــد لا مـــن أهـــل زوجهـــا ولا مـــن أهلهـــا حتّـــى ولـــو كـــان الأهـــل لطفـــاء وكرمـــاء وقليـــل مـــا هـــم، ولكـــن هـــل تســـتطيع أيهـــا الـــزوج أن تـــؤمن لزوجتـــك منزلاً مستقلاً؟

الرجل: نعم نعم بكل سرور

وجدّد الزوجان العقد وعادت المياه الى مجاريها ولِلّه الحَمْدُ

٣-جريمةُ نسبٍ

لعلكم ما زلتم تذكرون نبأ تلك المرأة التي جعلت من نفسها شبكة تصطاد بها الشباب الغافلين أزواجاً لها ثم ما تلبث أن تلقي ما في شبكتها من أجل أن تلقي بها من جديد.

وكم هم مَسَاكينُ أولئك الشّباب الذينَ يسقطون صرعى عند أول طرفةٍ بعين، أو تنهيدة صدر، أو ابتسامة ثغر، أو كلمة عشق أو هيام، ...

لقد حدثت تفاصيل هذه الواقعة بعد أن ألقت تلك المرأة ما صادته شبكتها في المرة الثالثة استعداداً لإلقائها من جديد

يقول القاضي

جاءت مكتبي وهي تسوق أمامها ولدين وتجر خلفها آخر

يا لهم من مساكين كأولئك المساكين ، ويا لهم من بائسين كأولئك البائسين

القاضي: خير خير يا أختاه

المرأة: إن أولادي هؤلاء موزعون على الشكل التالي:

هذا ابني قيس وهذه ابنتي ليلى وهم من زوجي الأول

وهذا ابني رامي وهو من زوجي الثاني، وإن زوجي الثاني بعد أن حملت جنينه في بطني طلّقني ومضى لا أعلم إلى أين!

القاضي: ولكني إلى الآن لم أفهم ماهي شكواكِ أو دعواكِ

المرأة: إن عقدي على زوجي الأول والثاني

القاضي: والثالث أيضاً

المرأة: نعم، ولكن مالي وللثالث الآن، إن عقدي على زوجي الأول والثاني عقد (برانـي)لم يُثبت في المحكمة وكذلك الأولاد وأنا أريد تثبيت زواجي الأول فقط فلذا أريد أن أضم ابني الثالث

رامي إلى أخويه وأجعلهم جميعاً أبناء رجل واحد هو زوجي الأول وقد استشرته فما أبدى امتعاضاً ولا امتناعاً، فما قولك يا حضرة القاضي؟؟؟؟

ولم تنهي المرأة كلامها حتى بدا الغضب الشديد على وجه القاضي **وقال**:

إن ما تطلبينه يا امرأة لهو جريمة أي جريمة!

المرأة: ولماذا يا حضرة القاضي وقد رضي زوجي الأول وتخلّى عني زوجي الثاني أبو هذا الصبي

القاضي: إنّ ما أنت بصدده لهو جريمة رباعية:

فأنت **أولاً** تقطعين صلة ابنك هذا بأبيه وأعمامه وباقي أفراد أسرته الأصليين.

وأنتِ **ثانياً** تقحمين وتُدخلين على زوجك الأول وأسرته فرداً ليس منهم ولا يمتُ لهم بصلة.

وأنت **ثالثاً** تحلين لابنك ما حرّم الله عليه من نساء أقربائه الأصليين.

وأنت **رابعاً** تحّرمين على ابنك ما أحلّه الله له من نساء أقربائه المزيفين.

فهل بعد هذه الجريمة الشنعاء من جريمة؟؟؟

وكأن المرأة لم تفهم شيئاً مما قاله القاضي فقد جعلت أكبر همها في مطاردة الشباب واصطيادهم فليس عندها أي اهتمام في تعلم مبادئ الدين الذي شرّفها اللهُ بالانتسابِ إليه.

ويتابع القاضي قائلاً:

إن النّسبَ حق يكتسبه الولد من أبيه الشرعي ويستتبع حقوقاً وواجبات فهو يوجب على الأب الحقيقي الإنفاق على ولده، وحضانته ورعايته وتأديبه ورسم خطاه للمستقبل، وكما يحرم

علـــى الولـــد بعضـــاً مـــن قريبـــات الأم كـــأم الأب(الجـــدّة)وأخت الأب (العمّة)إلى غير ذلك من الحقوق.

كمـــا ويوجـــب النســـب علـــى الابـــن بالمقابـــل طاعـــة أبيـــه والبـــرّ بـــه والإنفاق عليه عندما يغدو ذلك الأب كبيراً عاجزاً عن الكسب.

إن مـــا تفعلينـــه يشـــبه اقـــتلاع شـــجرة اســـتوائية وزرعهـــا فـــي أرض القطـــب الشـــمالي أو الجنـــوبي فـــلا هـــي بقيـــت فـــي أرضـــها ولا هـــي عاشت في تلك الأراضي الجديدة.

يقول القاضي

وهنا علمت تلك المرأة خطورة ما كانت ستُقدم عليه.

ومـــن الطريـــف أنـــه فـــي اليـــوم التـــالي لهـــذا اليـــوم حضـــر إلـــى القاضـــي أبٌ ومعه ابنته التي كانت تحمل على يدها طفلاً رضيعاً

قـــال الأب: إن ابنتـــي تزوجـــت مـــن رجـــل وأنجبـــت منـــه هـــذا الطفـــل الصـــغير وقـــد توفّـــاه الله عزوجـــل وأنـــا أريـــد -بمـــا أن العقـــد والولـــد لـــم يســـجلا بعـــد فـــي دائـــرة الأحـــوال الشخصـــية-أن أســـجّل هـــذا الولـــد علـــى اســـمي وأجعلـــه ولـــدي لكـــي تبقـــى ابنتي على سجلات الحكومة بِكراً لم يسبق لها الزواج.

ضحك القاضي وقال في نفسه:

أيـــة أمـــة نحـــن؟ ننتســـب الـــى ديـــن لا نعـــرف قلـــيلاً ولا كثيـــراً مـــن أحكامه.

٤-زَوْجَةُ عَمِّهِ

كان لدي صديقٌ وكان ذلك الصديقُ من أوسمِ الشّباب في رأي العين، وكان أيضاً ذا همّة واجتهاد في عمله.

ولمّا بلغ السنّ التي يتزّوج فيها أترابه من الشباب تزوج وما لبث أن صار أباً وإلى هنا لا يبدو من أمره ما فيه غرابة أو استنكار ...إلى أن جاء ذاك اليوم الذي حضر فيه ذاك الصديق إلى مكتبي وطلب مني أن أخليَ المكان لأنه يريد ألّا يطّلعَ على ما سيقوله أحد وكان له ما أراد ودار بيننا هذا الحوار:

-أريد أن تعقد لي على امرأة وأرجو أن يظل الأمر سرّاً

ر-أولست متزوجاً؟

-بلى وأحبُّ زوجتي وأحبُّ ابنتي منها!

-فلماذا إذاً تريد أن تقترن بأخرى؟

-وهل يحتاج الزواج الثاني الى مسّوغ في شرع الله عزوجل؟

-لا لا يحتاج إلى مسوغ فإذا ما استطاع الرجل أن يعدل بين المرأتين في النفقة من جهة، وفي توزيع الليالي بينهنّ من جهة أخرى، فهذا حسبه وكافيه، ولا عليه بعد ذلك.

-وأنا قادرٌ على ذلك.

-وكيف تكون قادراً على أن تعدل بينهما وأنت تريد أن يكون العقد الثاني سراً لا يطّلع عليه أحد حتى الزوجة الأولى؟

-إن الزوجة الثانية متفهّمة لهذا الأمر ولن تجد غضاضة في ألّا أعدل بينها وبين الأولى في الإقامة.

-حسناً حسناً دعنا من هذا وحدّثني عن المرأة التي تريد أن تعقد عليها، أبكرٌ هي أم ثيّب؟ وإن كانت ثيّباً فهل هي مطلقة أم أرملة؟ وهل مضت عدّتها ويوجد معها ما يثبت الطلاق أو الوفاة؟؟

-ولماذا كل هذه الأسئلة؟

-لأن كثيراً من النساء صارت تقدم على الزواج من رجل آخر وهي ما تزال في عصمة الأول أوعدّته وقد واجهتني أكثر من حالة من هذا النوع

-إنها امرأة ثيّب وقد مات زوجها منذ أكثر من سنتين وهي تملك شهادة وفاته.

-حسناً وأظن أنها من النساء اللائي وفدن بلدتنا بسبب الحروب الدائرة في بلادها

-لا لا إنها.. إنها.. إنها..

-إنها ماذا؟

-إنها امرأة عمي رحمه الله.

-ماذا تقول: امرأة عمك؟؟؟؟؟

-نعم

-لا شك أنها تكبرك في السن بكثير، ولا شك أن عندها أولاداً وهم أبناء عمك

-نعم نعم وهل من حرمة أن يتزوج الرجل من امرأة تكبره في السن؟

-لا، لا حرمة، لا في العقد، ولافي أن تكون الزوجة الثانية أرملة أو مطلقة أو عندها أولاد أو تكبر زوجها بقليل أو كثير

-فما الأمر إذن؟

-لا شيء لا شيء، وأرجو منك أن تأتيني بها قبل أن آخذ قراراً بعقد العقد لكما

-ولم يمضِ سوى يوم أو يومين حتى حضرا معاً وكانت المفاجأة

-لقد كانت تلك المرأة بقايا امرأة، كانت كزهرةٍ ذبلت من بعد اخضرار، أو بحيرة غاض ماؤها من بعد امتلاء، أو كالبدر في آخر أيام الشهر، وإن من رآهما معاً ظن أنهما أمّ وابنها وفي أحسن الأحوال أخ مع أخته الكبرى.

وتبادلت أطراف الحديث مع تلك المرأة ثم أذنت لها بالانصراف واستبقيت الشاب عندي **وقلتُ له:**

اسمع يا صديقي سأقول رأيي فيما أرى والأمر لك

لقد وقعت في هوى هذه المرأة في أول أمرك بالهوى.

ولقد نَزَلَت من نفسك منزلةَ المرأة الأولى التي يظن الرجل أن النساء جميعاً قد أُختزلنَ فيها.

ولكن اعلم يا هذا أن هذا ما هو إلّا تضخيم من النفس أو تهويلٌ من الشيطان.

ولو أنك اقترنت بها لعلمت أن ما كان في نفسك منها ما هو إلّا تهويلٌ ليس له رصيدٌ من الواقع.

ثم ماذا لو علم الناس بأمركما، زوجتُك، أبناءُ عمك الذين هم أبناء تلك المرأة؟؟

ماذا سيكون تبريرك لهذا الأمر أو تعليلك له؟

أطرق الشاب برأسه يفكر ثم انصرف من غير أن يقول شيئاً.

٥-والدُ زَوْجِهَا

حَضَـــرَتْ ذاتَ يـــومٍ امـــرأةٌ إلـــى مكتبـــي منقبـــةٌ، وتضـــع علـــى عينيهـــا نظّـــارتين ســـوداوتين، فوقـــع فـــي نفســـي أنهـــا أخفـــت وجههـــا وعينيهـــا خلـــف ذاك النقـــاب وتلـــك النظّـــارة لـــيس مـــن بـــاب التـــدين ولا مـــن بـــاب العـــادة والعـــرف وإنمـــا لأن مـــا تريـــد الحـــديثَ عنه يُخجل المرأة وهذا ما كان بالفعل.

وبعد أن ألقت السلام بدأت تتكلم:

قالت: عندي مشكلة خطيرة وانا أريد منك أن تشاركني في حلّها.

أنـــا امـــرأة متزوجـــة منـــذ ســـنتين، وقـــد كنـــتُ أنـــا وزوجـــي نقطـــن فـــي منـــزل مســـتقل عـــن أهلـــه، ونـــزورهم حينـــاً ويزوروننـــا حينـــاً، لكـــن وبســـبب حركـــة النـــزوح الدائمـــة التـــي ابتلينـــا بهـــا بســـبب ظـــروف الحـــرب اضـــطررت إلـــى السّـــكن مـــع أهـــل زوجـــي أعنـــي والـــدَهُ ووالدتَهُ وأخوتَهُ العزّاب والمتزوجين.

وقـــد ســـارت الأمـــور فـــي البدايـــة بشـــكل طبيعـــي إلـــى أن جـــاء ذلـــك اليـــوم حينمـــا ذهبـــتُ إلـــى زيـــارة أهلـــي وعـــدتُ فـــي المســـاء فوجـــدت

الـــدار خاليـــةً فتخففـــتُ مـــن ملابســـي لاســـيما وقـــد كـــان الجـــو شـــديد الحرارة والتيار الكهربائي مقطوعاً

وفجـــأة دار مفتـــاح الـــدار وإذا بوالـــد زوجـــي كـــان أول الواصـــلين، الحـــديث ثـــم طلـــب منـــي أن أصـــنع لـــه كأســـاً مـــن الشـــاي فقفـــزتُ إلـــى المطـــبخ مســـرعةً، وبـــدأت بتحضـــير شـــراب الشـــاي، وبينمـــا أنـــا كـــذلك شـــعرت بـــأن جســـداً خلـــف جســـدي، وأنفاســـاً لاهثـــة تكـــاد تثقـــب أذنـــي، فالتفـــتُ فَزِعـــةً فـــإذا بوالـــد زوجـــي، فطلبـــت منـــه بـــأدب أن يغـــادر المطـــبخ وأن ينتظرني في غرفة الجلوس.

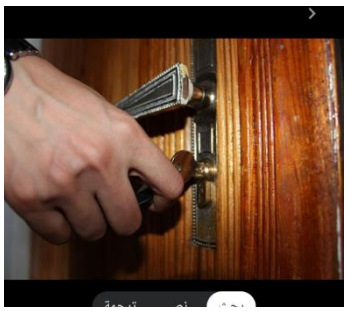

وبـــدأت أتســـائل فيمـــا بينـــي وبـــين نفســـي عـــن ســـرّ هـــذا التصـــرف المشين فلم أجد له جواباً مقنعاً.

ثـــم إنـــي حملـــت إبريـــق الشـــاي وكأســـاً واحـــدة فقـــط وذهبـــت بهـــا إليـــه فلـــم أجـــده فـــي غرفـــة الجلـــوس فقـــد كـــان فـــي غرفـــة النـــوم وطلـــب منـــي أن أوافيه هناك.

فـــدخلتُ غرفـــةَ النـــوم فوجدتـــهُ مضـــطجعاً وينظـــر إلـــيّ بنظـــرة لا تخفـــي مـــا يـــدور فـــي خَلَـــدِ صـــاحبها، وطلـــب منـــي أن أضـــع الشـــاي جانبـــاً وأن أجلـــس الـــى جـــواره فـــي المكـــان الـــذي تنـــام عليـــه زوجتـــه لكـــي نتبـــادل أطـــراف الحـــديث ولكنـــي رفضـــتُ ووضـــعت الشـــاي وانصـــرفت إلـــى غرفتـــي وأغلقـــت البـــابَ علـــى نفسي وصرتُ كَعصفور بَللهُ القطرُ.

وبعـــد قليـــل جـــاء زوجـــي مـــن عملـــه فهممـــتُ بإخبـــاره ولكنّـــي تراجعـــت فـــي اللحظـــة الأخيـــرة فقـــد أكـــون واهمـــةً فـــأتهمَ الرجـــل بمـــا هو منه براء، وتهمة كهذه قنبلة موقوتة أو زلزال مدمّر.

ومضـــت الأيـــام وكـــان ذاك الرجـــل يراقـــب الأمـــور عـــن بُعـــد بـــدهاءٍ ومكر كمكرِ الثعالب.

ولمـــا تأكـــد أن كـــل شـــيء علـــى مـــا يـــرام وأنـــي لـــم أخبـــر زوجـــي ظـــن أنـــي راغبـــةٌ بـــه، وبـــدأ يلاحقنـــي بنظراتـــه وكلماتـــه وحركاتـــه حتـــى تأكـــد لـــي أنـــه يريـــد

منـي مـا يريـده الرجـل مـن زوجتـه وإنمـا أنـا زوجـةُ ابنـه وبمثابـة ابنتـه في الحرمة.

وهـا قـد جئـتُ إليـك يـا حضـرة القاضـي أسـتفتيك فـي أمـري، فانظر في أمري وأخلص في نصحي فقد بدأت أتهم نفسي.

يقول القاضي

ها قد حدّثتني عن والد زوجكِ فحدّثيني عن زوجكِ

قالـت: إنـه شـاب بسـيط إلـى حـدّ السـذاجة، لـم ينـلْ نصـيباً مـن العلـم والمعرفـة، يمضـي نهـاره كلـه مـن طلـوع الفجـر إلـى غـروب الشـمس مـع والـده فـي المطعـم، لا يعـرف غيـر بيتـه وعملـه، ولأبيـه فـي نفسـه مكانـة مثـل مكانة الأصنام في قلوب أهل الجاهلية.

يقول القاضي

ولعـل والـده قـد اسـتغل بسـاطته وانشـغاله فـي عملـه وتعظيمـه لـه حتـى فعـل مـا فعـل وعلـى كـل حـال سنسـتدعيه لنسـمع منـه كمـا سـمعنا منـك فمـا أنصـف مـن حكـم لأحـد الخصـمين قبـل أن يَسـمع مـن الآخر.

واسـتدعى القاضـي والـد الـزوج إلـى مكتبـه ومـا إن دخـل الرجـل حتـى بـدأ يتحـدث عـن نفسـه وعـن أسـرته العريقـة فـي العلـم والعبـادة ثـم وعلـى الفـور وجّـه تهمـة السـرقة إلـى تلـك المـرأة-وهـذا مـا كنـت أتوقعـه وقلـت للمـرأة بأنـه سـيحدث –وختـم قـائلاً إن ابنـي ونحـن أيضـا لـم نعُـد نريـد تلـك المـرأة زوجـة لـه، وأرجـو مـن حضـرة القاضي اتخاذ إجراءات المخالعة.

وهـذا مـا كـان بالفعـل، ولـم أسـعَ بالصـلح بـين الـزوجين كمـا أفعل عادة لأن مِثلَ هذه الحالة تستعصي على الإصلاح أبداً.

٦-أُختُ زَوْجَتِهِ

رَنّ جرسُ الهاتفِ في وقتٍ يُرعب الناسَ فيه رنينُ الهاتف.

القاضي: من المتصل؟

المتصل: أنا رجل وعندي مشكلة كبيرة جداً!!!

القاضي: حسناً حسناً وهل تتوقع منّي أن أحلّ مشكلتك الكبيرة جداً باتّصالٍ هاتفي؟؟؟

المتصل: لا لا يا سيدي لا أتوقع ذلك، ولكن أريد منك تحديدَ موعد لمقابلتك

القاضي: تعالَ -إذن-إلى مكتبي غداً بعد الساعة العاشرة

ومضى على الاتصال يومان أو ثلاثة ولم يأتِ صاحبُ الاتصال وفجأةً دخل مكتبَ القاضي شابٌّ مديدُ القامة، بهيُّ الطلعة، متأنقٌ في ملابسه، يبدو عليه أنه ربيبُ أسرة عريقة.

الرجل: السلام عليكم...هل أنت حضرة القاضي؟؟

القاضي: نعم نعم أهلاً وسهلاً .... عرّفنا بحضرتك، وما هي قضيتك؟

الرجل(وقد بدا عليه التردد والارتباك): أنا من اتصل بكَ قبلَ يومين في منتصف الليل، وأعتذرُ عن ذلك جداً، وأعتذر عن تأخري، وأعتذر عن إزعاجك...

القاضي (وهو يضحك): لا أظن أنك حضرت إلى هنا لتقدم قائمة من الاعتذارات هيا هيا تكلم يا رجل

الرجل: لقد تزوّجتُ قبلَ نحوِ ستةِ أشهر من الآن من فتاة ذات جمال ومال وحسب ونسب ملأت عيني وقلبي وروحي سعادةً وهناءةً ولم يمضِ

علـــى زواجنـــا غيـــرُ قليـــل حتـــى ظهـــر علـــى زوجتـــي أعـــراضُ الحمـــل ِفزادنـــا ذلـــك فرحـــاً إلـــى فرحنـــا فعمّـــا قريـــبٍ سنصـــبح أســـرة مكتملة الأركان.

القاضي: حسناً حسناً ولكن أين المشكلة؟

الرجـــل (متابعـــاً): ومضـــت أيـــامُ الحمـــل الأولـــى بيســـر وســـهولة ولكـــن مـــا إن مضـــت ثلاثـــة أشـــهر ودخـــل الرابـــع حتـــى ثَقُـــل الحمـــل علـــى زوجتـــي ممّـــا أعجزهـــا عـــن القيـــام بأعبـــاء منزلنـــا الصـــغير، وقـــد عرضـــتُ علـــى زوجتـــي أن أســـتأجر لهـــا خادمـــة تخـــدمها حتـــى تضـــع مولودها وتعود قادرةً على تحمل أعباء المنزل

القاضي: نعم نعم.. وهل وافقت على عرضك هذا؟

الرجل: لا لا بل رفضت لأنها تغار عليَّ غيرة شديدة

القاضي: فماذا فعلتما حيال تلك المشكلة؟

الرجـــل: لقـــد اقترحـــت زوجتـــي بـــدلاً مـــن الخادمـــة أن تطلـــب مـــن أسرتها أن تستضيف أختها عندها وهنا يا سيدي هنا المشكلة؟

القاضـــي: لقـــد أثـــرت فضـــولي يـــا هـــذا...فكيف يكـــون حضـــورُ أخـــت زوجتك مشكلةً، وهي ما جاءت إلّا لتحلّ لكم تلك المشكلة؟

الرجـــل: نعـــم نعـــم ألـــيس هـــذا مـــن عجائـــب القـــدر أن ينقلـــب حـــل المشكلة إلى مشكلة أعتى وأشدّ من المشكلة الأولى؟

القاضي (مخاطباَ الرجل): دعك من فلسفتك يا هذا وأكمل قصتك

الرجـــل: نعـــم نعـــم لقـــد كانـــت تلـــك الفتـــاةُ ســـاحرةً صـــغيرةً، عيونهـــا تطلـــق ســـهاماً لا تُخطـــئ القلـــوب، وقوامهـــا مديـــد، وبياضـــها شـــديد، ذات حيويـــة ونشـــاط، وفكاهـــة وحضـــور، لقـــد كانـــت كالماء للظمآن، والهواء للمخنوق، ...

القاضي: حسبُكَ يا رجلُ حسبُك

الرجـــل: عفـــواً يـــا ســـيدي أنـــا لا أُقـــول فـــي وصـــفها مـــا أقـــولُ لكـــي أبـــرر مـــا كـــان، بـــل لأقـــولَ لـــك إنّ كـــل مـــا ذكرتـــه مـــا كـــان إلا تزيينـــاً مـــن

الشيطان، فواللهِ الذي يعلم السر وأخفى ما إن وقع بيننا ما وقع حتى صارت في عينيّ كعجوز شوهاء، أسنانها ساقطة، وظهرها منحنٍ، وبشرتها متجعدة.

القاضي: لقد أصبتَ الحقيقة، ولولا تزيينُ الشيطان للإنسان المعاصي لما اقتربَ منها، فضلاً عن الوقوع فيها ولكن عندي سؤال

الرجل: ما هو؟

القاضي: ماذا عنها؟ وهل كانت تبادلك ذات المشاعر؟

الرجل: لا أعلم لا أعلم ولكني كنت أشعر بأنها ترتاح الى جميل كلامي معها، حتى صارت تتأنق في ملابسها، وتتحايل في خطواتها، وما إن توصل أختها إلى غرفتها حتى تسرع لمجالستي ومحادثتي حتى وقتٍ متأخر من الليل

القاضي: نعم وماذا فعلت أنت؟

الرجل: لقد علمتُ أننا في طريق أوله ما نحن فيه وآخره نار تلظّى، لذلك صرتُ أتغيّب عن البيت كثيراً ولا أرجعُ إلّا في وقتٍ متأخرٍ وأغادر في وقتٍ مبكر، وأكثر مجالسة زوجتي وصرت كأني في معركة ولكن خصمي فيها نفسي وشيطاني وهي، وما أدراك ما هي؟

القاضي (ضاحكاً): نارٌ حامية!

الرجل (باكياً بحرقة): نعم نعم إنها نارٌ حامية أحرقتني في الدنيا وأخشى أن تحرقني يوم القيامة

القاضي: وماذا بعدُ؟ ماذا حدثَ بعد ذلك؟

الرجل: وفي ذات يوم من الأيام عدتُ من عملي مبكراً لأني أشعر بالجوع والإرهاق، وصادف ذلك أن زوجتي كانت في عيادة الطبيبة وظننتُ أن أختها كانت بصحبتها عند الطبيبة

القاضي: وماذا بعد؟

الرجـــل: خلعـــتُ ملابســـي ونمـــتُ فـــي غرفـــة النـــوم، وجـــاءت أخـــتُ زوجتـــي مـــن جامعتهـــا ولـــم تكـــن كمـــا كنـــتُ أظنهـــا مـــع أختهـــا، وغيـــرت ملابســـها ولبســـت ملابـــس خفيفـــة ودَخلـــتْ إلـــى غرفـــة نـــومي ظانـــه أنّ أختهـــا قـــد جـــاءت ونامـــت وأصـــبحت أمـــامي فـــي ملابســـها تلـــك وفـــي غرفة نومي و....

القاضـــي: حســـبُكَ يـــا رجـــل حســـبُكَ تكلـــم بإجمـــال ودع عنـــك التفاصـــيل الآن

الرجل: حسناً ثم كان ما بيننا ما كان...وهذه يا سيدي مشكلتي

القاضي: ويا لها من مشكلةٍ...وماذا بعد؟

الرجـــل: لقـــد أحسســـت بالنـــدم الشـــديد والخـــوف مـــن الله وتـــذكرت قـــول الله ﴿ وَأَن تَجْمَعُـــواْ بَـــيْنَ ٱلْـــأُخْتَيْنِ﴾ فقـــد حـــرّم الله الجمـــع بـــين الأختـــين فـــي عقـــد واحـــد حـــلالاً فكيـــف بمـــا فعلته أنا وهي حراماً؟

لقـــد أحسســـت أن الله وملائكتـــه، والســـموات ومـــا فيهـــا، والأرض وما عليها، كلُّ ذلك يلعنني على ما اقترفت يداي.

القاضـــي: ألـــم تقـــل يـــا هـــذا أنـــك نشـــأت فـــي أســـرة تـــؤمن بـــالله وتخشـــى منه فكيف ورطت نفسك في هذا؟

الرجـــل: لقـــد قلـــتُ لـــكَ إن الشـــيطان زيّنهـــا فـــي عينـــيّ وزيّننـــي فـــي عينيها

القاضـــي: نعـــم واســـمع منـــي، إنّ مـــا وقعـــت فيـــه وقـــع فيـــه كثيـــرون قبلـــك وســـيقع فيـــه كثيـــرون بعـــدك، لقـــد اســـتهترتَ بـــالاختلاط مـــع أقربـــاء زوجتكَ متناسياً تحذيرَ الرسول صلى الله عليه وسلم عندما قال:

(الحمو الموت)

الرجل: هذه مشكلتي...فماذا أصنع؟

القاضي: عليك **أولاً:** أن تتوب إلى الله ممّا فعلت.

وثانيـــاً: أن ترســـل أختـــك زوجتـــك إلـــى منـــزل أهلهـــا فـــوراً فـــإن مـــا جـــرى بينكمـــا ســـيتكرر وهـــل أدمـــن المـــدمنون إلّا بعـــد أن شـــربوا الكـــأس الأولـــى وقـــد شربتماها وليتكما لم تفعلا.

وثالثـــاً: عليـــك أن تتواصـــى أنـــت وهـــي بكتمـانِ هذا السر

ورابعاً: ابحث لها عن زوج مناسب.

الرجل: وهل أخبره؟

القاضي: لا لا أبقِ الأمر سرّاً، ولا تهتك ستراً

الرجل: وماذا عنها؟

القاضي: من هي؟

الرجـــل: زوجتـــي يـــا ســـيدي تلـــك التـــي أدخلـــت أختهـــا إلـــى منزلـــي بـــدلاً مـــن الخادمـــة لغيرتهـــا ...إننـــي لـــم أعـــد أســـتطيع النظـــر إليهـــا أو الحـــديث معها أو ...أو، ولقد أحسّت أن بي شيئاً ولكنها لم تعلم ما هو.

القاضـــي: أجـــل أجـــل عليـــك أن تكفّـــر عمـــا فعلـــت بإحســـانك إليهـــا وجميل رعايتك لها ولابنكما الوافد عليكما وتذكر قول الله

(﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾).

٧-الاتّصالُ الأخيرُ

دخل غاضباً وهو يُمسكُ بيده هاتفاً محمولاً وبدأ بكلامه قبل سلامه قائلاً:

خذْ يا حضرة القاضي خذ هذا الهاتف واقرأ الرسائلَ النصيّةَ فيه: المرسلَةَ منه والصادرةَ إليه.

القاضي: هدّئ من روعك يا هذا واقعد

الرجل: خذ خذ واقرأ الرسائل المرسلة والرسائل الواردة

القاضي-وقد أمسك بالهاتف المحمول-: حسناً حسناً ولكن اقعد وعرّفني بنفسك، وقصّ عليَّ من نبأك.

الرجل: أنا رجلٌ متزوج من أكثرَ من سنة من امرأة أحببتها ورزقني الله منها فتاة جميلة كأمّها، وفي الليلة السابقة كنتُ أنا وزوجتي على الشرفة وليس إلّا أنا وهي جالسان نتبادل أطراف الحديث ونحتسي كأساً من الشّاي، وفجأة أشارت رنّة الهاتف إلى أن رسالة وردت فأمسكت زوجتي بالهاتف وقرأت الرسالة فتغيّر وجهها وبدا الاضطراب عليها وسرعانَ ما ادّعت حجة لمغادرة المكان الذي نحن فيه .... **وسكت الرجل**

القاضي: وماذا بعد؟ أكمل أكمل

الرجل: أظهرت لها أني لم انتبه إلى اضطرابها وتركتها حتى إذا ما دخلت غرفتها وخلتْ بنفسها وأقبلت على الهاتف تقرأ ما ورد عليها...اقتحمت عليها خلوتها وأخذت الهاتف من يدها وقرأت ما أُرسلَ إليها وما كان متبادلاً من قبل، ويالليتني ما قرأت

القاضي: هدّئ من روعك يا رجل

وبدأ القاضي يقرأ الرسائل ويمعن النظر فيها ويتأمل كلماتها ليفهمها ويفهم ما بين سطورها أيضاً، فما بين السطور أخطر بكثير ممّا تحمله السُّطور وممّا جاء:

المتصل: كيف أنت يا حبيبتي قد اشتقتُ إليكِ، وزهدتُ بالنساء إلّا أنتِ ولم أعد أفكر إلا فيكِ.

الزوجة: كم مرّةً قلتُ لكَ إني قد تزوجتُ، وأنا أحبُّ زوجي وقد رزقنا الله بطفلةٍ جميلة، وأرجو منك أن تتركني وشأني (وأرجوك أن لا تخرب بيتي)

المتصل: كيف أتركك وأنت الروح لجسدي، والهواء لرئتي، والبصر لعيني، وأنت قلبي...

الزوجة: دعك من هذا الكلام المزور، وتذكر أنك متزوج وأني متزوجة (وأرجوك أن لا تخرب بيتي)

المتصل: وهل زوجتي من عالم النساء**!** أنتِ النساء جميعاً، ...

القاضي –وقد قرأ ما قرأ-: يا هذا إن زوجتك امرأة طاهرة شريفة وإن كانت قد أخطأت بأمر وهو...

الرجل-مقاطعاً القاضي-: ماذا؟ ماذا تقول؟ وكل تلك الرسائل ألم تقرأها يا سيدي

القاضي: نعم ولهذا قلتُ ما قلتُ، إن السطور توحي أنها رسائل متبادلة بين عاشقين ولكن ما بين السّطور يقولُ إنها رسائل من شيطان ماكر خبيث وامرأة مغلوبة على أمرها تحاول الخلاص منه ولكنها لم تفلح وكلما حاولتْ الخلاص غاصت أكثر كواقع في الرمال المتحركة.

الرجل: أيّاً يكن فأنا لا أريدها أن تظلّ زوجة لي ولهذا أتيتك

القاضي: لا بأس لا بأس.

ويعطي القاضي الرجل ورقة استدعاءٍ للزوجة إلى مكتب القاضي، ويمضي الرجل ومعه الورقة.

ويُطوى يوم من عمر الزمن وتحضر الزوجة إلى مكتب القاضي.

المرأة: سلام الله على القاضي وتعطيه ورقة الاستدعاء

القاضـــي: أهـــلاً وســـهلاً يـــا أختـــاه تفضـــلي واقعـــدي ولا أراك إلّا قـــد علمتِ لماذا استدعيتك

المـــرأة: نعـــم نعـــم يـــا ســـيدي وكلـــي خجـــل ولقـــد تمنيـــت أن أمـــوت قبـــل أن يحدث ما حدث وقبل أن أمثل بين يديك

القاضي: هوّني عليكِ وقصّي عليّ من نبأك

المـــرأة: شـــاء الله أن أرحـــل أنـــا وأهلـــي مـــن بلـــدتي- بســـبب الأحـــداث فـــي بلـــدتي- إلـــى بلـــدة أخـــرى وكنـــتُ أظـــن أن النـــاس الـــذين نزحنـــا إلـــيهم ســـيراعون ظروفنـــا ويخففـــون عنّـــا مصـــائب الـــدهر ومصـــاعبه، ولكـــن الكثيـــرين مـــنهم فعلـــوا غيـــر ذلـــك ...وعلـــى كـــل حـــال لقـــد صـــار الرجـــال الـــذين نزحنـــا إلـــى بلـــدتهم كقطيـــع مـــن الـــذئاب لاح لهـــم قطيـــع من الغنم لا راعي لها، ولا حارس معها.

القاضـــي: صـــدقتِ وكـــأنهم مطمئنـــون إلـــى أنهـــم لـــن يصـــيبهم ما أصابَ غيرهم...أكملي أكملي

المـــرأة: اســـتأجرنا منـــزلاً صـــغيراً بمبلـــغٍ كبيـــر عنـــد بعـــض أهـــل البلـــدة وكـــان صـــاحب المنـــزل الـــذي اســـتأجرناه رجـــلاً كبيـــر العمـــر قليـــل القـــدر وعينـــاه تقـــولان إنـــه ذئـــب بملابـــس بشـــرية ولقـــد قـــرأت وفهمـــت نظرات عينيه منذ اللحظة الأولى ولكن ماذا أفعل؟ وماذا بيدي؟

القاضي: وماذا بعد؟

المـــرأة: صـــار يـــدقُّ بابنـــا بســـبب وبـــلا بســـبب، وظـــنّ أهلـــي أنـــه إنمـــا يفعـــل ذلـــك شـــفقةً بنـــا وعطفـــاً علينـــا، وإنمـــا فعـــل ذلـــك لأنـــه ظـــن أنّـــي لقمـــة ســـائغة ولكنـــي لـــم أكـــن كـــذلك، ولـــن أكـــون كـــذلك وصـــار يلاحقنـــي بنظراتـــه وكلماتـــه وظللـــت صـــابرة حتـــى فـــرّج الله عنـــا وغادرنـــا بلدتهم العفنة وعدنا إلى بلادنا

القاضي: حسناً حسناً

المـــرأة: ولكـــن لـــم أكـــن أعلـــم أنـــه قـــد حصـــل علـــى رقـــم هـــاتفي مـــن أمّـــي ومـــا إن وصـــلتُ إلـــى بلـــدتي حتـــى بـــدأ يتواصـــل معـــي فصـــددته،

ومـرّت الأيـام وتزوجـتُ وذات يـومٍ عـاود الاتصـال بـي فأخبرتـه أنـي قـد تزوجـت، وقلـت عسـى أن يردعـه ذلـك **وقلـت لـه:** هـل ترضـى لزوجتـك أن يتحـدث معهـا رجـل أجنبـي ويقـول لهـا بعـض مـا تقـول لي

القاضي: أحسنتِ يا سيدتي

المـرأة: ولكنـه رجـل بـلا شـرف ولا ديـن فـأنّى ينفـعُ معـه مثـل هـذا الكلام؟

القاضي: وماذا فعلتِ؟

المـرأة: لـم أعـدْ أردّ علـى رسـائله ولكنـه هـدّدني بـأن يفضـح العلاقـة بيني وبينه أمام زوجي والله يعلم أن لا شيء بيني وبينه

القاضي: ولماذا لم تخبرني زوجكِ؟

المـرأة: وهنـا كـان خطـأي لقـد خشـيتُ أن أخبـره فيصـدق فريـة ذلـك الكلب ويفضحني أو يطلّقني

القاضـي: وهـا قـد وقـع مـا كنـتِ تحـاذرين، ولـو أن كـل زوجـة أخبـرت زوجهـا بمـا جـرى معهـا مـن اللحظـة الأولـى لجنّبـت نفسـها نتائج لا تُحمد عقباها

المـرأة: أجـل أجـل يـا سـيدي، وقـد جئـتُ إليـك وقصصـت مـن نبـأي عليـك والله يعلـم أنـي صـادقة فـي كـل كلمـة قُلتهـا، وكلّـي أمـل ورجـاء أن تصلح بيني وبين زوجي وأن تخبره حقيقة الأمر.

وفـي اليـوم التـالي حضـر الرجـل إلـى القاضـي وحـاول القاضـي إقناعـه بكـل الوسـائل ولكنـه لـم يفلـح فـي ثنيـه عـن عزيمتـه فـي طـلاق زوجتـه وانتهـى الأمـر بـالطلاق بـين الـزوجين والفـراق بينهما إلى الأبد إلا أن يشاء الله أمراً.

٨-أبو الحسن وزوجاته

كنتُ ذاتَ يومٍ جالساً وحولي بعضٌ من طلبة العلم نتناقش في بعضٍ من شؤون العلم، فإذا برجلٍ يدخل علينا ويجلسُ معنا ويبادلنا أطراف الحديث، وكأن عهده معنا وبنا قديم غير حديث.

لم يرق لي ذلك الرجل حينها، ولكنه بدأ يغشى مجالسنا، وأُخبرت عنه فيما بعد أنه متزوج خلال حياته وصولاً إلى يومنا هذا من سبع نسوة وأكملها فيما بعد بثلاث فصارت عشرة كاملة.

وعندما علمت عنه ذلك وثّقت علاقتي به لأستكشف حقيقة أمره وهذا ما كان.

وفي ذات يوم من الأيام وقد خلا المجلس إلّا مني ومنه طرحت عليه هذا السؤال؟

قلتُ له: بالله عليك ما الذي يجذب النساء إليك؟ حتى جمعت في عصمتك أربعاً منهن في وقت واحد، وأكثر من ذلك خلال حياتك الماضية وكأن قلبك ممر لا مقر؟ ولستَ بذاك الشاب الوسيم أو ذاك الغنيّ المليء؟

ضحك الرجل وقال: هذا سرّ المهنة يا أستاذ سرّ المهنة

وزادني كلامه هذا إغراء حملني على مواصلة الحديث معه

فقلت له: إن عصرنا هذا لا يقبل فكرة التعدد مطلقاً

أبو الحسن: أجل أجل لأنه عصر مجنون

فقلتُ له: وكيف ذاك؟

أبو الحسن: إنه عصر مجنون لأنه لا يمانع أن يرتبط الرجل بأكثر من امرأة من غير عقد، كما أنه لا يبالي أن يعقد الرجل على رجل والمرأة على امرأة وقد باركت الكنائس كل تلك الألوان في الشذوذ، ولكنها غضبت وهاجت وماجت من أجل التعدد بعقد، بالله عليك أوليس هذا جنوناً؟

فقلتُ لـه: أجل أجل ويبدو أنك على اطّلاع حسن يا أبا حسن في قضايا التعدد.

أبو الحسن: نعم نعم أنا لها، أنا لها.

فقلتُ لـه: في تقديري إن التعدد في شرعنا وجد ليحل مشكلة عجز العالم كلّه عن حلّها، مشكلة الفائض النسوي، فثمة أعداد هائلة من النساء لا تجدُ لها أزواجاً ولا حلّ لهذا الفائض إلّا بشرعنة التعدد ولكن حل هذه المشكلة ما ينبغي أن يخلق بدوره مشكلة أخرى.

أبو الحسن: أفصح أفصح يرحمك الله.

فقلت لـه: إن حل مشكلةِ امرأةٍ غير متزوجة لا ينبغي أن يكون على حساب امرأة متزوجة فقد يؤدي رفضها للزواج عليها إلى أن تنضم إلى ذاك الفائض من جديد!

أبو الحسن: نعم نعم هذا في غياب حسن العمل بالتعدد

فقلت له: أنت الآن أفصح

أبو الحسن: إن التعدد الذي يمارسه الكثير من الرجال شوّه هذا التشريع الفذّ والفريد كما شوّه المسلمون دينهم بشكل عام بسوء الفهم وسوء العمل، فالتعدد له ضوابط

فقلت له: نعم نعم له ضوابط وهي...

أبو الحسن (مقاطعاً): دعْ هذا لي فأنت وغيرك ممن درس ودرّس تلك الضوابط إنما تعاطاها على الورق، وأما أنا فقد خبرتها عن قرب وعلى أرض الواقع كما يقولون.

إن التعدد لا يعني التفريط بالزوجة الأولى لحساب الزوجة الثانية بل لابد أن يقسّم الرجل وقته بين الاثنتين، وكذلك يسوّي بينهما في الإنفاق فلا تكونُ واحدةٌ تعبٌ من النعيم ويجافيها النوم من شدّة الشبع، وأخرى تتعب في حياتها ويجافيها النوم من شدّة الجوع.

قلت: والقلب يا أبا الحسن والقلب؟

ضحك أبو الحسن وقال: القلب يملكنا ولا نملكه، وهل يملك أحدنا أن يحب أولادَه أو والديه أو أصدقاءه بذات القدر فكيف بالنساء! آه وفيهن الجميلة والقبيحة، واللينة والعنيدة، و ...

وهنا قاطعته قائلاً: كأنك جربت كل هذا؟

أبو الحسن: دعكَ من هذا، فهذا أيضاً من سر المهنة

قلت له: ذات مرّة أفصحت لزوجتي عن رغبتي في التعدد (مجرد طرح فقط) فاشتعلَ البيت ناراً وهدّدت بالطلاق والفراق...فكيف استطعت أنت أن تتجاوز هذا والنساء نساء؟

أبو الحسن: عندما تزوجت المرأة الأولى أخبرتها برغبتي الجادة في التعدد فرفضت كما رفضت زوجتك وكما ترفض أيُّ امرأة مَنّ عليها القدر برجل جعله زوجاً لها، ولكني عندما تعرّفت على زوجتي الثانية تزوجتها متجاوزاً رضا زوجتي الأولى وهكذا فعلت فمن رضيت منهنّ بهذا الأمر الواقع فلها الرضا وصدر المنزل ومن رفضت فلا إكراه في الزواج.

ومضت الأيام ومضى صديقنا في طريقه وعلمتُ أنه تزوج من جديد، فذهبتُ إليه مباركاً ومهنئاً وقدّمتْ لنا زوجته الجديدة ضيافة متواضعة **فقلتُ له بصوت منخفض:** هل علمت زوجتك الأخيرة أنك تزوجت عليها؟

أبو الحسن: نعم نعم إنها مع أولادها في الغرفة المجاورة وناداها مع أولادها فجاءت وجلست معنا وكانت تضع نقابها على وجهها.

فشعرت بأن الكل يعيش بهدوء وسكينة ورضا وسعادة تفتقر إليها البيوت ذات الزوجة الواحدة.

أبو الحسن بعد أن انصرفت زوجتاه: الآن يا أستاذ سأخبرك عن سرّ المهنة.

فقلتُ له: عجّل عجّل يرحمك الله

أبــو الحســن: إن الكثيــرين مــن الرجــال عنــدما يعــدّدون يريــدون مــن وراء تعــــددهم متعــــة أجســــادهم، فتــــراهم يلهثــــون وراء المــــرأة الأصــــغر ســــناً، والأكثــــر جمــــالاً ونضــــارة وبــــديهي أن مــــن كانــــت زوجتــــه الجديــــدة علــــى هــــذا النحــــو أن يميــــل إليهــــا مــــيلاً يــــذرْ الأخــــرى كالمطلّقــــة ولكــــن عنــــدي فــــي التعــــدد مذهب آخر.

فقلت له: عَجّلْ يرحمك الله.

أبــو الحســن: إنّــي عنــدما أتــزوجُ مــن امــرأة جديــدة، أتــزوجُ مــن امــرأة ترى لي فضلاً عليها، لا أنها أفضلت هي عليّ.

فقلت له: لقد زدت السرّ غموضاً.

أبــو الحســن: حســناً حســناً لقــد قلــت لــك إن الرجــال عنــدما يتزوجــون بــأخرى يبحثــون فيهــا عــن الصِــبا والجمــال أو المــال ...وفــي مثــل هــذه الحالــة تــرى الجديــدة أن لهــا فضــلاً علــى زوجهــا لأنهــا رضــيت به على ضرّة (والضرّة مرّة) كما يقولون.

وأمــا أنــا فأبحــث عــن امــرأة يكــون ارتبــاطي بهــا ســبباً فــي حــل مشــكلتها، ولأضــرب لــك مــثلاً بزوجتــي الرابعــة أو الخامســة-لــم أعــد أذكــر تمامــاً-فهــي امــرأة تــوفّي عنهــا زوجهــا تاركــاً لهــا خمســة أيتــام فــزادت فاجعتهــا فتقــدمت لهــا طالبــاً يــدها وضــممت أولادهــا إلــى أولادي وهاهم كما رأيتهم قبل قليل أدباً وعلماً.

أفترى هذه المرأة بارتباطي بها أفضّلت عليّ أم العكس؟؟

فقلــت لــه: صــدقت صــدقت ولكنــي يــا صــديقي لســتُ علــى مــذهبك عندما أريد أن أعدّد ...وليرحمنا الله.

٩-تعدّدُ الأزواجِ

قد يضمُّ الرجل إلى زوجتهِ الأولى زوجةً ثانية أو أكثر، وهذا أمر تقرّه الفطرة والإسلام معاً ولكن ضمن ضوابطه المعروفة من القُدرة عليه من قِبلِ الإقبالِ عليه، ومن القدرة على استبقائه بالحب والعدل بعد الحصول عليه.

ولكن

أن ترتبط المرأة بأكثر من زوج فهذا أمر أغرب من الخيال وأعجب من العجب، ولا أعرف أمّةً في الأرض تقرّه حتى الأمم الإباحية، فإن المرأة عندما ترتبط برجلٍ آخر غير زوجها فإن ذلك لا يكون إلا خارج دائرة الزواج حتماً.

وفي ذات يوم من الأيام حضرت مكتبي امرأة قد تجاوزت الخامسةَ والثلاثين من عمرها ويبدو عليها علامات الاتّزان – هكذا بدت لي-وأخبرتني بأنّ زوجها قد طلّقها وهي تريد مني تثبيت ذاك الطّلاق.

والقاضي في مثل هذه الحالة يطلب من الزوجة إثباتاً على دعواها، والإثبات شهادة مقبولة يتقدّم بها شاهدانِ سمعا الزوج وهو يطلّق زوجته، وفي حال عجزت الزوجة عن ذلك فإننا نستدعي الزوج لنتبيّن صدق ادّعاء زوجته من كذبه، فما كلّ مدعٍ صادق في دعواه، ولذلك استدعى القاضي الزوج.

القاضي-وقد مثُل أمامه الزوج-: إنّ زوجتك تدّعي أنك قد طلّقتها وهي تريد تثبيت هذا الطلاق

الزوج: لا يا سيادة القاضي إنّ زوجتي كاذبة فأنا والله لم أطلّقها، وليست المشكلة هنا

القاضي: فأين المشكلة إذن؟

الزوج: المشكلة أنّها قد تزوجت برجلٍ آخر وهي ما تزال على عصمتي

القاضي-وقد صُعقَ بما قاله الزوج-: أحقاً ما تقولهُ يا هذا؟؟؟؟

الزوج: نعم نعم وأُقسم على ذلك.

القاضي: حسناً حسناً، اذهب أنت الآن وسأستدعيك عند الحاجة.

ومضى يوم أو يومان وحضرت الزوجة وهيَ لا تعلم أنّي قد استدعيت زوجها وأنه قد قال لي ما قال، وأنّي قد تأكدت من صدق ما قال.

الزوجة: سلام الله على القاضي.

القاضي: وعليكِ السلام يا هذه، هيا اقعدي وأستحلفكُ بالله أن تصدقيني فيما أسألك عنه.

الزوجة-وقد بدا عليها الارتباك الشديد-: نعم نعم ولكن ماذا ستسألني؟

القاضي: هل أنت الآن متزوجة من رجل آخر؟

الزوجة-بعد أن أطرقتْ رأسها ولزمت الصمّت-: أجل أجل

القاضي: ولكن كيف حدث هذا؟

الزوجة: إنك تعلمُ الأحداث التي تمرّ بها بلادنا وبسببها افترقتُ أنا عن زوجي وطال فراقي له فقد بقيَ هو في بلدته وغادرتُ أنا إلى مكانٍ آخر، وفي ذاك المكان لجأت إلى أحد معارف والدي فأسكنني في غرفةٍ متواضعة وكان عنده ابن في مثل سنّي تقريباً وما إن رأيته حتى أحسست أني قد وقعتُ في نفسه، ووجدتُ مثل ذلك في نفسي، ومع الأيام توثّقت علاقتنا وكنتُ قد أخبرته لمّا أحسست فيه ما أحسست أن زوجي قد مات، والأمر ليس كذلك.

القاضي: وماذا بعد؟

الزوجة: ذهبنا إلى أحد (المشايخ) وأخبرته أن زوجي قد مات ومضت عدّتي منه وطلبت منه أن يعقِدَ قراني على هذا الرجل ففعل.

القاضي: هكذا بكل بساطة عقد لكِ على زوج جديد بمجرّد ادعائك أن زوجك الأول قد مات من غير أن يسألك عن بيّنة من شهادة وفاة أو شهود.

الزوجة: هذا ما حدث.

القاضـــي: اعلمـــي إذن أنّ عقـــدك علـــى الرجـــل الثـــاني عقـــدٌ باطـــل ولا يترتـــب عليـــه أيّـــة آثـــار أو نتـــائج لأنـــك مـــا زلـــتِ حتـــى هـــذه اللحظـــة علـــى عصـــمة زوجـــك الأول لأنـــه لـــم يطلّقـــكِ ولـــم يتـــوفَّ عنـــكِ، كمـــا واعلمـــي أيضـــاً أن عقـــد العاقـــد لا يحـــل لـــكِ الـــزوج الثـــاني ولا يلغـــي وجـــود الـــزوج الأول مـــن حياتك لأنه باطل باطل باطل.

وذهبـــتْ المـــرأة ولـــم تعـــدْ وعلمنـــا مـــن الـــزوج أنّ أخبارهـــا قد انقطعت أيضاً.

١٠-آباء وأبناء

كـــانَ رجـــلاً طيـــب القلـــب، محبـــاً للخيـــر، متزوجـــاً ولـــه غيـــر ولـــد وقـــد كبـــر أكثـــر أبنائـــه وبلغـــوا ســـن الـــزواج بـــل قـــد تـــزوّج بعضـــهم وصار لهم أطفال صغار.

وبسبب ظروف الحرب التي تمرّ بها بلادنا حتى كثر الحل والترحال في بلادنا نزحت العديد من العائلات إلى تلك البلدة التي يقيم فيها صاحبنا ذاك.

وكان من بين تلك العوائل امرأة أرملة فقدت زوجها ولها منه ثلاثة أولاد، فما كان من صاحبنا طيّب القلب المحبّ للخير إلّا أن أسدى بعض المساعدة لتلك المرأة وأولادها.

ومع مرور الوقت توثّقت العلاقةُ بينهما، وماذا تريد امرأة مثلها أكثر من رجلٍ مثلِهِ؟

وصارحني الرجل بدخيلة نفسه، فوجد مني تشجيعاً زاده إصراراً على ما في نفسه، ولكن ما إن وصل الأمر إلى زوجته وأبنائه حتى ثارت ثائرتهم، وقامت قيامتهم، وانقضّوا عليه باللوم والتعنيف، كأنما هو مُقبل على علاقة غير شرعية تذهب بالهيبة وتنكّس الرأس.

وكان أشدّهم عليه زوجته وأحد أبنائه، حتى إن ذاك الولد ذهب إلى تلكَ المرأة وأوسعها سبّاً وشتماً وتهديداً.

وصار الأبناء يتحدثون مع أبيهم بلغة ما ينبغي لابن أن يتحدث بها مع أبيه، وما زالوا به حتى حالوا بينه وبين ما يريد، وكان لهم ما يريدون، لا ما يريد.

ودارت الأيام دورتها وجاءني أحد أبنائه يريد أن يطلّق زوجته ويقترن بأخرى، فذكّرته بكلمة قلتها له عندما عارض والده: هَبْ أنك ابتليت بحب امرأة سوى زوجتك وأردت الاقتران بها فما أنت فاعل؟

ثم قلت له: لماذا تبيح لنفسك ما حظرته على والدك؟

واعتذرت عن مساعدته وصرفته عني بأدب.

لقد كان مصير هذا الرجل أقلّ سوءاً من مصير رجل آخر انتهى أمره قتيلاً على يد ابنه الأكبر، وكان وراء ذلك تحريض

أمّـهِ التـي طلّقهـا أبـوه لسـوء خُلُقِهـا وتـزوج بـأخرى، فمـا زالـت بابنهـا تـوغر صـدره علـى أبيـه حتـى أرداه قتـيلاً، فخسـرَ الـدنيا والآخـرة معاً.

وإن أحـدنا لا يـدري فـي زماننـا هـذا مـن هـم الآبـاء ومـن هـم الأبناء؟

١١-الكأس الأولى

إنّها قصة من الواقع وليست نسجاً من عالم الخيال.

إنها قصةُ فتاة أُلقي القبض عليها بعد كمين محكم، على ظن أنها عينٌ تنقلُ الأخبار، وتفشي الأسرار، ومِمّا عزّز الشكوك حولها علاقاتها المريبة بهذا وذاك من رجال الأجهزة المعنيين بترصد ذاك النوع من الأخبار.

وما إن أُلقي القبضُ عليها حتى صُبّ عليها العذاب صبّا، حتى أنه لم يبقَ في جسدها موضع شبر إلّا وفيه أثر ضربة بعصا، أو جلدٍ بسوط، أو لكمة، أو لطمة، حتى تحوّل لونُ جسدها من الأبيض الناصع إلى الأزرق الضارب نحو السّواد.

ثم إنهم لم يرفعوا العذاب عنها حتى اعترفتْ لهم بما ظنّوه بها.

وأخيراً

سُلّمتْ تلك الفتاة مع اعترافاتها إلى القاضي لينظر بأمرها ويصدر حكمه العادل بشأنها.

يقولُ القاضي

ولمّا رأيت ما بها من أُثرِ العذاب تجاوزت عن اعترافاتها وبدأت استجوابها من جديد.

وقد روت تلك الفتاة للقاضي قصتها وأفصحت عن خبيئة نفسها **فقالت:**

ماتت أمّي وأنا ما أزالُ طفلةً صغيرة، فلم يمضِ غيرُ قليل حتى رأيت امرأة أخرى تحلّ محل أمي في بيتها وعلى سريرها وقيل لي إنّها أمّكِ الجديدة، ولكنّي لم أرَ منها ما كنتُ أراه من أمّي القديمة من الإحسان والعطف والحنان.

فقد كانت تلك المرأة فظّة غليظة معي، وعلمت فيما بعد أنها زوجةُ أبي لا أمّي الجديدة، وقد أذاقتني تلك المرأة كل صنوف العذاب حتى كأني من أتباع موسى وهي من آل فرعون

وما إن بلغت عالم النساء وأنا في الرابعةَ عشرةَ من عمري حتى زوجتني زوجةُ أبي من قريبٍ لها لِتتخلص مني.

وقد كان ذاك الرجل في الثلاثين من عمره بل ويزيد، وكان قد تزوج من قبلُ من امرأة غير أنها لم تنجب له أولاداً فلذا طلّقها وأراد الاقتران بي، هكذا قال الرجل.

لقد فرحتُ في بادئ الأمر ظناً مني أن معاناتي قد انتهت وأن أيام عذابي قد تولّتْ إلى غيرِ رجعة، ولم أعلم أنها لم تبدأ بعد.

تقول الفتاة

وزُفِفتُ إليه على عجلٍ وكأنما أنا جثّة تواري الثرى، لا عروس تُزفّ إلى دار زوجها.

وأمضيت معه شهراً أو يزيد مرتاحةَ البال والخاطر، غيرَ أنّي لاحظت أن زجاجات الخمر، ومختلف أنواع الدخان ومواد أخرى-علمت فيما بعد أنها مخدرات-وكذلك صور النساء الكاسيات العاريات كانت تملأ المنزل، وكان زوجي كلما جاءه اتصال غادر الغرفة وتكلّم بصوت منخفض حتى لا أسمع ما يقول أو يقال له.

لقد أحسست بشيء من الغموض يلفُ حياته، وكان أكثر ما أثار ريبتي أنه كان يمضي نهارَه نائماً، ولَيلَهُ يتسكع هنا وهناك، ومع ذلك فقد كان معهُ مال كثير جداً.

ولم أبالي بكل هذا إذ فرحتي بالتخلص من تلك المرأة الملعونة غلبت كل شيء آخر، وأسكتت جميع التساؤلات التي كانت تثور في نفسي بين الحين والآخر.

كنتُ أُقول في نفسي إذا كان كشف تلك الأِسرار سيعيدني إلى بيت تلكَ المرأة من جديد فلتبقَ تلك الأسرار مدفونة في الأرض السابعة.

وذات يوم من الأيام وعلى غير المعتاد أيقظني زوجي من وقت مبكر واصطحبني معه إلى دائرة الهجرة والجوازات

ليستخرج لي جواز سفر، ولمّا سألته عن السبب أجاب بأن لديه رحلة عمل وهو يريد أن يصطحبني معه لأنه لا يصبر على فراقي، وتعجبتُ من كلامه ذاك فأنا خلال الشهر الذي أمضيناه معاً لم أشعر بمحبتهِ لي، إذا كان يمضي نهاره نائماً، وليله هنا وهناك، ولا يعود إلّا مع خيوط الفجر الأولى، وقد أذهب الخمر عقله.

ولمّا سألته عن الوجهة **قال:** إنه يريد الذهاب إلى بلد خليجي وسمّاه لي.

وصرتُ أعدّ الأيام عدّاً بانتظار يومِ السفر، وتصوّرت نفسي تلك السائحة التي ستطوف الأرض مشارقها ومغاربها، وترى كل قديم فيها وجديد، وكل عجائب صنع الله وصنع الإنسان، ثم تعود لتحدّث جاراتها وقريباتها بما رأتْ وسمعتْ، وتريهم الصور التي التقطتها، والتحف التي اقتنتها.

وممّا أثار استغرابي أنه قبلَ السفر بيوم أو يومين اصطحبني زوجي معه مساءً إلى أشهر محلّات الألبسة واشترى لي من الملابس أغلاها ثمناً، وأكثرها إغراءً وفتنة حتى إنه وبنفسه انتقى لي ذاك النوع من الملابس التي تلبسه المرأة لزوجها ل ...

وجاء اليوم الموعود وتوجّهنا نحوَ المطار وما هي إلّا ساعة أو يزيد حتى حططنا رحالنا على أرض ذلك البلد الخليجي وتوجهنا فوراً إلى فندق فخم ضخم ، وأقمنا فيه عدّة ليال ثم توجهنا إلى منزل ادّعى زوجي أنه استأجره مدّة مقامنا في ذاك البلد وقد كان هو الآخر فخماً ضخماً مليئاً بالأثاث الفاخر وتحيط به حديقة غنّاء كأنما هو من منازل ألف ليلة وليلة غير أنه كان في مكان بعيد متطرف عن وسط المدينة.

وأقمنا عدة أيام لم أرَ زوجي يقوم فيها بأيّ عمل غير أنه كان يتلقّى الكثير من الاتصالات وكان يتعمّد إخفاء حديثها عنّي.

وذات يوم استيقظ قريب العصر ولبس ملابسه وغادر المنزل ولكنّه وقبل أن يغادر طلب مني أن أحضّر له مائدة العشاء عند الساعة العاشرة، وأن ألبس أفخر ملابسي أي أكثرها إغواءً وإغراءً لأنه وكما **قال**: سيمضي تلك الليلة معي وقد حضّر لي مفاجأة ستدهشني.

تقولُ الفتاة

ثم إني رتبت المنزل، وتزيّنت، ولبست أفخر أي أغرى ملابسي، وحضّرت أطايب الطعام ومعها زجاجات الخمر التي جلبها بنفسه.

وعند العاشرة سمعتُ وقع الأقدام عند باب البيت فأقبلتُ مسرعةً وفتحت الباب بتلك الملابس وهنا كانت المفاجأة.

إن الداخل ليس زوجي فمن هو يا ترى؟

إنه ذاك الرجل الذي طلب مني زوجي أن أتزين من أجله، لقد كنتُ أنا الطعم والطعام وعلمت عندها كلّ شيء ولكن بعد فوات الأوان.

لقد كانت تلك الليلة أصعب ليلةٍ في حياتي كلها وأنا أرى نفسي أتقلب في أحضان رجل غريب أمنحه ما تمنحه المرأة لزوجها وسكتت المرأة.

القاضي

وماذا بعدُ؟ ماذا بعد يا امرأة؟

تقول الفتاة

وصار كلّ يوم يدخل علي رجلاً غير الذي قبله، وهكذا حتى مضى علي خمسةَ عشرَ يوماً، وخمسةَ عشرَ رجلاً.

القاضي

وماذا بعد؟

تقول المرأة

ثمّ عدنا إلى بلادنا وهدّدته بأني سأخبر أهلي بكل ما جرى معي، فضحك وهو غير مبالٍ بما أقول وكشف لي عن مفاجأة أخرى-وما أكثرَ المفاجآتِ مع هذا الرجل- وهي أنّ امرأة أبي على علم مُسبّق بكل شيء وأنها باعتني له وقبضتِ الثمن.

القاضي

وماذا بعد؟

تقول الفتاة

ومضى علينا خمس سنوات ونحن على هذا الحال، نقيم شهراً أو شهرين في بلدنا وشهراً في بلد آخر أُباعُ فيه كل ليلة لسيّد جديد ينال مني ما يريد، ويقبضُ منه زوجي النّذل ما يريد.

وتعرّفت في تلك الأثناء على صديقة صدوقة فأطلعتها على سرّي فنصحتني بأن أفارق هذا الرجل النذل الخسيس وما إن عرضت عليه الأمر حتى بادر هو إلى طلاقي لأنه وبلا شك يسعى للحصول على زوجة جديدة وظننتْ أن مأساتي قد انتهت عند هذا الحد.

وتابعت الفتاة قائلةً

لقد كنتُ أظنّ أني أكره القيام بذلك الأمر ولكنّي اكتشفت الحقيقة المرّة وهي أني كنتُ أكره أن أُكُره على ذلك الأمر فما إن تخلّصت من ذاك الذي كان يُكرهني حتى صرت أقوم بهذا الأمر بملء إرادتي.

القاضي: لقد أصبحتِ مدمنة على ذلك الأمر من بعد أن تجرّعتِ الكأسَ الأولى.

١٢-هذه الحقيقةُ ولكن من يُصّدق؟

حدّثني صديقي قال:

كنت أعيش أنا وأخي في منزلٍ واحد، مرافقه من الخلاء والحمام والمطبخ مشتركة بيننا، وكنتُ أنا أراعي ذلك ما استطعت إلى ذلك سبيلا ، فأذهب في الصباح الباكر، ولا أعود

إلّا في المساء، ولا أخرج خارج غرفتي إلّا للضرورة لئلا يقع بصري على زوجة أخي.

وأمّا أخي غفر الله له فكان على غير ذلك، ولطالما اشتكتْ زوجتي من ذلك، ولكنّي كنت أعدها وأمنّيها.

ولطالما تحدّثت مع أخي عن آداب الاستئذان إلى غير ذلك ولكن كنت كمن ينفخ في الرمَاد، غير أننا في نهاية المطاف لم نجد بداً من اقتسام المنزل فيما بيننا، وقد وقعت المرافق في نصيبه مما اضطرني إلى عمارة مرافق جديدة من الخلاء والحمّام والمطبخ مما أثّر على مساحة المنزل فصار ضيقاً جداً ولكن الأمر هكذا أفضل، فقد صار لكلٍ منا أنا وأخي مسكنه الشرعي.

قال : وفي ذات يوم أردت أن أستعيرَ حاجة من بيت أخي، وبابي-كما يقال-على بابه، فإذا الباب مفتوح ،فناديت عليه فلم يجبْ، ثمّ إنّي هتفت باسم زوجته فلم تجبْ، فوقع في نفسي أنهما ليسا في المنزل، وتركُ الباب مفتوحاً يدلُ على ذلك، فما كان مني إلّا أن دخلت إلى المطبخ لأخذ غرضي الذي أريده وهنا حدثت المفاجأة غير السّارة، حيث إن زوجتي هي الأخرى أرادت زوجة أخي لأمر ما فنادت عليها، وعندما أردت أن أخرج من المطبخ لأقول لها إنه ليس من أحدٍ في الدار خرجت زوجة أخي من غرفة نومها بملابس نومها، فقد كانت نائمة ولم تستيقظ على صوتي بل على صوت زوجتي، وحدث كل هذا وأنا ما أزال في المطبخ فماذا أفعل؟

إن خرجت من المطبخ فستظنّ بي زوجتي الظنون.

وإن مكثت حتى تنصرف زوجتي وتدخل زوجة أخي وتغلق خلفها لا أعلم ماذا سيكون؟

لقد وقعت في حيرة من أمري وترجّح عندي أن أهون الشّرين أن أخرج وليكن ما يكون، فصحت بصوت مرتفع فدخلت

زوجة أخي إلى غرفتها، وخرجت من المطبخ وسط اندهاش الجميع.

وتفاقم الأمر في عائلتنا: بيني وبين أخي، وبيني وبين زوجتي، وبيني وبين زوجة أخي، وبين أخي وزوجته، حتى عمّ الأمر والجدل جميع أفراد الأسرة.

ولكي أحسم هذا الأمر جمعت أفراد الأسرة جميعاً ووضعتُ بيني وبينهم كتاب الله عزوجل ثمّ إني قصصت عليهم ما جرى وأقسمت على كتاب الله أنها هذه هي الحقيقة، وقد تفهّم الجميع موقفي وصدّقوا أمري غير أن الريبة ما تزال في عيون زوجتي.

ولمّا سمعت من صديقي ما قال، قلت له:

إنك تستحق ما جرى معك لأنك خالفت أدباً من أهم آداب الإسلام ألا وهو أدب الاستئذان، وتَلوتُ عليه قول الله عزوجل من سورة النور

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾

وأنت يا صديقي دخلت إذ ظننت أنه لا يوجد أحد من قبل أن تستأذن.

١٣-أسباب الحب

كان الوقتُ يقترب من الظهيرة عندما دخل ذاك الرجل إلى مكتبي وفي صحبته عدد من الرجال يبدو أنهم من أقربائه أو من أصدقائه.

كان رجلاً في الثلاثين من عمره غير أن مصائب الدهر قد منّت عليه بأربعين سنةً أخرى حتى صار يبدو في رأي العين ابن سبعين عاماً وما هو إلّا ابنُ ثلاثين.

كان رثّ الهيئة، متفرّق الشعر، لا تميّز بين شعر وجهه وشعر أذنيه وشعر لحيته، قد انحنى ظهره واتّسخت ملابسه حتى لم يعد بالإمكان التكهّن بلونها الأصلي، وكان يمتطي في قدميه بقايا حذاء تطلّ أكثر أصابعه منه كما يطلّ الأطفال من شرفات المنازل.

وما إن همّ هذا البائس بالكلام حتى سبقه إليه الذين هم معه.

قال أحدهم: إنه يا سيادة القاضي جاء يشتكي زوجه بأنها...

فقاطعه الثاني قائلاً: نعم إنها امرأة سوء فلقد والله...

وهنا تدخل الثالث قائلاً: قد منعته من الدخول إلى منزله بل وطلبت منه أن يطلّقها...

وعندها قاطعت الجميع قائلاً: إمّا أن تتركوا الرجل يتكلم، وإمّا أن تتركوا المجلس، فسكت الجميع.

وبدأ الرجل برواية قصته

كانت لي ابنة عم وكانت من أحبّ الناس إلي وكنتُ من أحبّ الناس إليها، وقد تُوّج هذا الحب بالزواج، وتُوّج هذا الزواج بثلاثة أولاد فتى وفتاتين كانتا مثل أمهما في رأي العين وفي قلبي، وكنا كأنما نعيش رواية حب خرافيّة لا حياة واقعية، وظلّ الحال على هذه الحال الحسنة

إلى أن اجتاح بلادنا شبح الحرب وألقتْ بظلالها علينا وفرض على بلدتنا الحصار فعمل الجوع والخوف عمله فينا.

ومن فرط حبي لها صرتُ أجوع بأربع بطون، وأخاف بأربعة قلوب، وبذلتُ الغالي والرخيص من أجل إخراج زوجتي وابنة عمي وشريكة حياتي من ذلك الجحيم، وأخيراً نجح الأمر بعد أن أنفقت كل ما معي، ولكن لم يكن ذلك كافياً لنا جميعاً بل للزوجة والأولاد فقط، ولا حرج عندي.

وما زلت يا سيادة القاضي أذكر تلك الليلة الأخيرة، لقد أمضتها زوجتي بالبكاء والعويل وكأنما هي ذاهبة إلى الموت لا إلى الحياة حتى إنّها قالت لي إمّا أن نخرج جميعاً، وإمّا أن نبقى جميعاً، غير أني تجلّدت وبي من الحزن أضعاف ما بها، ثمّ إنّي وعدتها بأني سألحقُ بها في أوّل فرصة.

وتابع قائلاً:

وغادرت زوجتي أرض الغوطة المحاصرة ومعها الأولاد وكأنها أخذت معها روحي وقلبي وأصبح البيت بل الدنيا في عينيَّ بارداً مظلماً، كيف لا؟ وهي النور لبيتي، والدفء لقلبي، وقد كان هذا الفراق هو الأول منذ أن جمعنا رباطُ الحب والزواج، ووصَلَتْ زوجتي والأولاد إلى بلدةٍ لا حصار فيها وإن كانت لاتزال تحت خطِ النّار.

ومضت الأيام بل والشهور بل والسّنون وأنا عاجزٌ عن اللحاق بهم وكنتُ أتواصل معهم بين الحين والحين وأحسست في الأيام الأخيرة بفتور لم أعهده ولكنّي لم أعبأ بذلك.

وأخيراً

جاء ذاك اليوم الذي استطعت فيه أن ألحق بهم، وصرت أعدّ الدقائق بل الثواني حتى وصلتُ إلى البيت الذي تقيمُ فيه زوجتي وأولادي وكانت أختها تقطن معها أيضاً، وها أنا ذا أدّقُ الباب دقاً يكاد يقتلع الباب من محلّه.

وفُتح الباب وليته لم يفتح

وهنا سكت الرجل وبدأ يبكي كما يبكي طفلٌ صغير فُطم عن حليب أمّه.

هدأت الرجل وطلبت منه أن يواصل سرد حكايته

قال: وفُتح الباب وأطّلت من خلفه امرأة كاشفة عن وجهها، قد زجّجت حواجبها، وصبغت شفتيها الورديتين وخدودها الحمراوتين، وكحّلت عينيها الفاتنتين وكانت تلبس ثياباً تكشف صدرها وتلبس ملابس لا تواري إلّا القليل من جسدها.

يقول الرجل: فغضضت الطرف عنها وقلت لقد أخطأت البيت فعهدي بزوجتي أنها تضع نقاباً يستر وجهها كما هو عادة أهل بلدتنا جميعاً حيث لا ترى في الطريق امرأة سافرة عن وجهها وهذه المرأة قد كشفت عن وجهها وزينته، وعن جسدها وعرضته، وهممت بالانصراف لولا أن أطفالي الثلاثة اندفعوا نحوي صائحين ...بابا بابا إجا بابا إجا بابا... وأحاطوا بي يعانقوني ويقبّلوني...وعلمتُ حينها أنّي لم أخطأ في البيت ولكن يبدو أن خطأ وقع لربّة البيت.

وهنا يا سيادة القاضي حدثت المفاجأة الثانية

فقلت له: وما هي؟

قال: لقد منعتني تلك المرأة من الدخول إلى المنزل، ولولا تضرّع أولادي لبقيت في الطريق، وعندما رأت المرأة تضرّع الأبناء سمحت لي بالدخول **وقالت:** ادخل ولكن على شرط وهنا كانت المفاجأة الثالثة، إنها مفاجأة الشرط.

قالت: ادخل لليلة واحدة فقط، ومن غير أن تدخل غرفتي حتى، ولابدّ أن تطلّقني.

الرجل: حسناً حسناً يا امرأة ولكن بالله عليكِ أخبريني ما الذي دهاكِ وألمّ بكِ وغيّركِ؟

يقــول الرجــل: وجعلــت أذّكرهــا بحبنــا وأول عهــدنا وكــأن الكــلام لا يعنيهــا ولــم يصــادف عنــدها أُذنــاً ولا قلبــاً وهــي لا تزيــد علــى **قولهــا:** طلّقني.

وهــذه هــي ذي قصــتي يــا ســيادة القاضــي فمــا تفســير ذلــك؟ وكيــف أتصــرف؟ إنــي عــاجزٌ كــل العجــز عــن التفكير.

قال القاضي

إنّ الحــب يــا هــذا إنمــا يبقــى مــا بقيــت أســباب حياتــه مــن المعاشــرة والملاطفــة والمســاندة، وإنّــه ليــزداد ويقــوى بقــوّة أســبابه، كمــا أنــه يضــعف بضــعف أســبابه، بــل إنــه ليمــوت عنــدما تنقطــع أسباب حياته.

ألا تــرى أن الشــجرة تبقــى ببقــاء أســباب حياتهــا مــن المــاء والهــواء وأشــعّة الشــمس، فــإذا مــا انقطعــت عنهــا أســباب الحيــاة ذبلــت فــي أول الأمــر ثــم ماتــت وصــارت حطبــاً يابســاً، وهــذا مــا حــدث معكما.

واعلــم أيضــاً أن الحــب لا يكفــي وحــده لــدوام المعاشــرة الزوجيــة بــل لابــد معــه مــن المناعــة الدينيــة التــي تســتطيع التصــدي لفــتن ومحــن الزمــان عنــد كــل مــن الــزوجين، ولعــل هــذا هــو معنــى قــول الرســول صلى الله عليه وسلم: "عليك بذات الدين فاظفر بها تربت يداك"

قال الرجل: هذا تفسيرك للأمر، فما ترى أن أصنع؟

قــال القاضــي: دعــكَ منهــا واســتنقذ أولادك منهــا وإيّــاك أن تتمســك بامرأة تخلّتْ عنك

وإلّا فأيُّ فرق بين الحب والعبودية!!!

١٤-اهتمامٌ أم اتهامٌ

كان شاباً في الخامسة والعشرين من عمره، وقد منحه الله وسامة قلَّ نظيرها، على شيء من الكبر ولا غرابة فالمنحُ من الله، والاغترارُ بها متلازمان إلّا ما رحم ربي.

وقد طلب مني ذاك الشاب أن يلتقي بي من أجل أن يستفتيني في أمرٍ خاص به.

وكان اللقاء، وما أسرع ما بادرني بهذا السؤال:

ماذا على من طلّق زوجته قبل أن تزفّ إليه من المال؟

فقلت له: إنّ إسراعك بالسؤال لدالٌّ على أنّك قد حزمت أمرك واتخذت قراراً لا رجعة فيه عندك.

قال الشاب: نعم صدقت فيما قلت.

فقلت له: ولكن أرجو منك أن تحكي لي قصتك عسى ألّا نصل إلى تحقيق جواب السؤال.

قال الشاب: منذُ حوالي ستة أشهر عقدت على فتاة من أسرة ذات حسبٍ ونسب، وهي بعدُ طالبة في الجامعة، **فقلت:** جميلة و مثقفة، وحسيبة ونسيبة، فماذا يريد شابُ فوق ذلك؟

قلت: نعم، ماذا يريد شابٌ فوق ذلك؟

الشاب: ولكن قد كانت تلك الفتاة مبتلاة بالوساوس والأوهام

قلت: لعلك تعني الغيرَة

الشاب: إن ما بها فوق الغيرَة، إنّه مرض، إنّه آفة.

قلت: إن من الغيرة ما يحب الله، ومن الغيرة ما يبغض الله، فإذا كانت الغيرة عن ريبة فهي مما يحب الله، وإن كانت على غير ذلك فهي مما يبغض الله، فهل هناك من باعث على غيرتها؟

الشاب: لا، سوى إنّي كما ترى منحني الله وسامة وجاذبية، حتى إنه قد بلغ بها أن تتصل بي كل نصف ساعة، فإن لم أُجبها اتصلت بأهلي تسألهم عني.

قلت له: لماذا لا تسمّي هذا اهتماماً؟

الشاب: إنّه اتهام وليس اهتماماً، ولئن كان هذا حالها ولما تزفّ إليّ فكيف بها إذا ما زفّت إليّ وصارت زوجتي؟

إني لأحسبها ستمنعني من الخروج، أو سترافقني كلما خرجت وهذا فوق طاقة أيّ إنسان، وتدارك الأمر من أوله خير من علاجه بعد تفاقمه، وقديماً **قالوا:** الوقاية خيرٌ من العلاج.

قلت: اعلم إذن أن من طلّق زوجته بعدما زفّت إليه ودخل بها أو اختلى بها الخلوة الشرعية فلها المهرُ كاملاً بمقدّمه ومؤخره ونفقة العدة أيضاً.

وأمّا من طلّق زوجته قبل أن تزفّ إليه وقبل أن يختلي بها فلها نصف كامل المهر.

وأنت من أصحاب الحالة الثانية وفي هذا يقول الله عزوجل:

﴿وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾

قال: والذهب؟

قلت: وأمّا الذهب فإن كان الزوج أعطاها للزوجة بعد العقد عليها ولو قبل الدخول بها فهو لها هدية لا يجوز له أن يرجع بها أبداً.

الشاب: إذاً عليّ أن أدفع نصف المهر وأن أتخلّى عن الذهب.

قلت له: نعم

قال وهو يضحك: هذا أهون من الاستمرار مع زوجة من هذا الطراز.

١٥-زواج مستعجل

تمتـــاز قصـــتنا هـــذه بالظرافـــة والغرابـــة معـــاً، وتـــتلخص أحـــداثها كما رواها لنا من شهِدها كما يلي:

كان أحد الأشخاص يسير في طريقه إلى غايته وبينما هو كذلك إذا بجمعٍ من الناس أصواتهم مرتفعة.

توقف الرجل ووقف مع الواقفين وجعل يسأل عن سبب هذا التجمع، **فقالوا له:** إن المسؤولين عن الحي يريدون إخراج المرأة من المنزل لأنها لا زوج لها وهم لا يريدون امرأة غير متزوجة.

فما كان من الرجل إلّا أن استأذن على المرأة وعرض عليها أن ينقذها مما هي فيه بأن يتزوجها.

وهنا وافقت المرأة، ولمَ لا وقد صار لها منزل وزوج أيضاً؟

خرج الرجل على أولئك القوم **وقال:** إن تلك المرأة زوجته فتركوها وذهبوا.

وواصل الرجل طريقه إلى غايته بعد أن عقد على تلك المرأة وتزوج منها ذاك الزواج المستعجل.

١٦-من بقايا المجزرة

جاءني ومعه فتاة وفتى لم يخلعا ثوب الطفولة إلّا من قريب، وفاجأني قائلاً إنّه يريد أن يعقد لهذا الفتى على تلك الفتاة.

فقلت له على عجل: ماذا تقول؟ أعِد، فأعاد قولته.

ولمّا رآني وقد أصابتني الدهشة وأحاط بها الاستغراب

قال: إنّ هذه الفتاة بلغت مبلغ النساء منذ شهرين أو أكثر

فقلت: وإن يكن

قال: إذن اسمع قصتها يا حضرة القاضي ثم احكم بنفسك.

كنا نقطن في **إحدى قرى الغوطة** ولمّا حدث ما حدث من تلك المجزرة المروّعة التي تناقل العالم أخبارها ومات فيها من مات لم نُصبْ أنا وأسرتي بسوء غير أننا قررنا المغادرة، وبينما نحن كذلك إذ دخلت علينا فتاة صغيرة تبكي **وتقول:** إنّ أهلي نائمون ولقد حاولت أن أوقظهم فلم أُفلح.

انطلقت إلى بيت جيراننا الذين كانت تلك الفتاة ابنتهم فوجدتهم كما قالت نائمين، ولكنّه النوم الذي لا يستفيق منه صاحبه إلّا على نفخة الصّور الثانية، إنّه نوم الموت الأبدي، ويا له من مشهد مروّع فظيع الأب والأمّ وجميع الأولاد، ولا أعلم كيف نجتْ تلك الفتاة.

فقلت له: إن لها عمراً لم تستوفِهِ بعد.

الرجل: نعم نعم، واصطحبنا تلك الفتاة معنا إلى منطقة لم تصلها يدُ الحرب بعد وجعلنا نبحث عن بعض أقرباء تلك الفتاة وذهبت كلّ جهودنا سدىً فقررنا إبقاءها معنا وها هي ذي قد صارت فتاة بالغة وأنا وابني في حرج إذ ليس ثمة إلّا غرفة واحدة نسكنُ فيها جميعاً، فلذا قررت أن أجعل منها زوجةً لابني فتحِلُّ له وتُحرم عليّ وتُحل مشكلتنا ومشكلتها.

فقلت له: حسناً إذن... وهذا ما حدث.

١٧-كتاب شيخ

اتصل بي أحدهم ممن له مكانة في قلبي طالباً مني أن أعقد له عقداً يجمع بين ابنة أخيه وأحدهم، فأجبته أن لا مانع عندي.

قال: ولكن ثمة أمر ينبغي أن تعلمه قبل أن تأتي وتعقد.

قلت له: ما هو ذلك الأمر؟

قال: إن ابنة أخي مكتوب كتابها (معقودٌ عليها)

فقلت عجباً: كيف يكون معقوداً عليها وتريدون أن تعقدوا لها على رجلٍ آخر.

إن العقد الأول يجعلها زوجة للعاقد الأول، والعقد يبقى ساري المفعول حتى يموت الزوج أو يطلّق أو يطلّق القاضي نيابةً عنه في الحالات التي يسمح فيها الشرع بتدخل القاضي.

قال: نعم ولكنه كتاب شيخ، كتاب برّاني.

فقلت: كتاب شيخ أو برّاني أو جوّاني هو عقد معتبر ما دام أنّه استكمل شروط انعقاده وصحته ونفاذه ولزومه كما يعبر علماء الشريعة.

ثم إنّ كتاب الشيخ هو الكتاب الوحيد قبل أن تدوّن العقود في السجلّات في دوائر الدولة الرسمية، فهل كانت عقود آبائنا وأجدادنا غير صحيحة.

إن كنتم لابدّ فاعلين فاطلبوا من الأوّل أن يطلّقها إن كان ثمة سبب مقنع ثم نعقد لها على الثاني وبما أنها غير مدخول بها فلا عدّة عليها.

واحذروا أن تتجاوزوا ذلك وإلّا سيكون زنا ولن يكون زواجاً.

١٨-نفقة زوجية

قالت لي بصوتٍ يبدو عليه الغضب: هل على المرأة أن تنفق على زوجها؟

فكان الجواب: قطعاً لا، فالشرع والقانون والأعراف تُلزم الرجل بالنفقة الزوجية بل إن الإسلام لا يسمحُ للرجل أن يعقد على امرأة يعلم من نفسه العجزَ عن القيام بنفقتها من مسكن وملبس وطعام وشراب...إلخ.

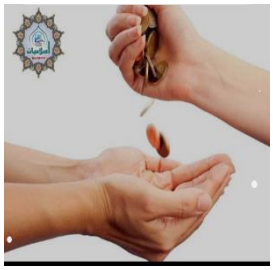

قالت: فإن عجز الزوج عن الإنفاق على زوجته؟

فقلت لها: إنّ الأسباب التي تعجز الرجل عن الإنفاق على أسرته كثيرة جداً.

فالرجل يعجز لآفة أصابته كالشلل والمرض المزمن والعمى

وقد يعجز الذي كان كأن يكون من عمله أو لكساد عمله يعتاشُ منه موظفاً فيُسرّح يطرد...

وقد يعجز كسلاً وهذا تعاجز لا عجز

والمرأة إن شاءت أن تقوم مقامه فيما هو مطلوب منه راضية فلها ذلك ولو كان متعاجزاً لا عاجزاً.

وإن شاءت رفعت أمرها إلى القاضي فاتخذ الإجراءات المناسبة التي تنتهي بالحكم بالتفريق بسبب العجز عن النفقة.

فانظري في أمرك واختاري أيَّ الطريقين شئتِ.

قالت: إن الذي أغضبني منه أنه دائماً **يقول لي:** لقد أنفقتُ عليكِ وعلى الأولاد منذ تزوجنا فما عليكِ إن عملتِ وأنفقت علي وعلى الأولاد؟ أولسنا زوجين؟

فقلت لها: إن الرجل مُكلّف بالإنفاق على زوجته ما دامت الزوجية، حتى ولو كانت الزوجة غنية، وأما بالنسبة للأولاد فحتى تتزوج الإناث ويصبح الذكور قادرين على الكسب.

قالت: هذا ما كنتُ أريد أن أعرفه لأكون على بيّنة من أمري.

١٩-جريمة خطف

استوقفه جاره قائلاً أريد أن أصارحك في أمرٍ له علاقة بزوجتك، ولكني محرج جداً من الحديث معك.

الزوج: لا عليك، لا عليك، قلْ ما في نفسك، فكلّي-كما يقولون-آذانٌ مصغية.

الجار: إن جارنا فلان الذي يقطن في الطابق الذي يعلو طابقكم-وبيته كما تعلمون قبال بيتي- زوجته غائبةٌ منذ حين بسبب خصام دار بينهما كما أخبرتني زوجتي بذلك، كما وأخبرتني أن زوجتكم-سترها الله-تتردد عليه كثيراً أثناء غيابكم، وزوجته كما ذكرتُ لك ليست في المنزل.

الزوج-وقد تمنّى لو مات قبل أن يسمع ماسمع أو أن يصير نسياً منسياً-: شكراً لك، وسأعالج الموضوع.

الجار -في قرارة نفسه-: لقد انطبقَ على جارنا المثل القائل

"الزوج أخر من يعلم"

انطلقَ الرجل إلى منزله انطلاقة سبعٌ جائع خلف طريدته، ودخل المنزل وأمسكَ بزوجته **قائلاً:**

اصدقيني فيما سأسلك عنه، هل هناك علاقة بينكِ وبين جارنا فلان؟

المرأة: لا لا إنما علاقتي مع زوجته، وإن ما بيننا من الودّ والصفاء ما بيننا، وأنا أزورها كل يوم وأشرب عندها فنجاناً من القهوة.

الزوج -بعد أن صفع زوجته صفعة انطبعت فيها آثار أصابعه على وجهها الأبيض-: يا كاذبة إن زوجته غائبة منذ كذا وكذا.

المـــرأة-بعـــد أن علمـــت أن زوجهـــا كشـــف حقيقـــة أمرهـــا-: نعـــم ولكـــن مـــا بيننـــا حـــدث صـــدفة، لقـــد جئـــت إلـــى بيـــت جـــاري وكـــان البـــاب مفتوحـــاً وكنـــت أظـــن أنهـــا فـــي الـــداخل ولـــم أعلـــم أنهـــا كانـــت علـــى خصـــام مـــع زوجهـــا وقـــد غـــادرت مـــع أولادهـــا المنـــزل ولـــم أرَ إلّا زوجهـــا أمـــامي غاضـــباً، فلمـــا ســـألته عنهـــا أخبرنـــي مـــا جـــرى بينهمـــا وهكذا توثّقت العلاقة بيننا.

الزوج: و لكن إلى أيّ حدّ؟

المرأة: أُقسم لك أنه لم يحدث شيء بيننا**!**

الـــزوج: رجـــل وامـــرأة خبـــرا الحيـــاة الجنســـية وهمـــا فـــي بيـــت خـــالٍ بعيد عن الرقباء وثالثهما الشيطان ثم لم يحدث شيء**!**

ثـــم انهـــال الرجـــل علـــى زوجتـــه ســـباً وشـــتماً وضـــرباً مبرحـــاً تـــدخّل الجيـــران وحجـــزوا مـــا بينهمـــا ثـــم إن المـــرأة حزمـــتْ أغراضـــها واصطحبت معها ابنها الصغير الوحيد وهربت على عجل.

ثـــم إنّ الـــزوج حضـــر إلـــى عنـــدي وحـــدّثني بـــأمره فطلبـــتُ منـــه أن يحضر زوجته ويحضر إلي.

وجـــاء الميعـــاد وجـــاء الـــزوج ثـــم جـــاءت الزوجـــة تصـــحبها أمّهـــا تاركين الطفل في منزل الأهل تحسباً.

جلســـا متجـــاورين وبـــدءا يتحـــدّثان وتطـــور الأمـــر إلـــى المجادلـــة وكـــاد أن يتجـــاوز ذلـــك، فـــأمرتهم بلـــزوم الصـــمت فلـــم يعـــد الكـــلام الآن مفيداً.

ثم إني خالعتُ بينهما حيث أسقطت المرأة مالها من مهر ونفقةِ عدّةٍ مقابلَ أن يطلّقها الرجل.

وبعد ذلك تجادل الزوجان في شأن الطفل كلٌ يريد أن يضمه إلى نفسه، وظنّت المرأة أنّي سأميلُ مع الزوج لأني رجل والرجال قد ينصرُ بعضهم بعضاً ولاسيما أن سبب التفريق هو الخيانة الزوجية.

ولكنها تفاجأت عندما حكمت بأن الحضانة من حقها مالم تتزوج، فإن فعلت انتقلتْ الحضانة إلى أمّها، ونفقة الولد على أبيه، وعليها أن تحضره كل أسبوع ليراه والده.

وهنا استشاط الرجل غضباً، **وقال:** هل تصلح هذه الخائنة أن تكون حاضنة؟

فقلتُ له: إن جريمة الزنا لم تثبُت عليها وإنما هو احتمال، فإن ثُبتت عدم أهليتها لحضانة ولدها في المستقبل نستطيع أن نرفع يدها عن الحضانة ولكنها حينها ستنتقل إلى أمّها.

وسكت الرجل على مضض وتمت المخالعة، ولكنها لم تعلم ما كان الرجل يُخبئه لها.

ودارت الأيام وجاءتني تلك المرأة مع أُمّها شاكيةً باكية.

فقلت لها: ما يبكيكِ يا امرأة؟

قالت: لقد أتيت بولدي ليراه أبوه كما اتفقنا على ذلك عندما كنّا عندك، وطلب مني طليقي أن يبقيه حتى المساء، ولمّا جاء المساء ولم يأتِ أحد علمت أنه أخذ الولد وهرب به فماذا أفعل؟

فقلت لها: اطمأني سأعيده لكِ.

ثمّ إنّي اتصلت بالقاضي الذي يقيم الرجل في المحلّة التابعة له وأخبرته بالقصة، فأمره أن يعيد الطفل إلى أمّه ففعل.

وكأننا أمام قول الله:

"﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ﴾ "

على أنه لن يكون من المرسلين.

٢٠-المجنونة

كانت الساعة تقترب من الثانيةَ عشرةَ ليلاً حينما طُرق الباب طرقاً عنيفاً، وكنت حينها غارقاً في النوم إذ من عادتي أني أنام مبكرا وأستيقظ كذلك مبكراً.

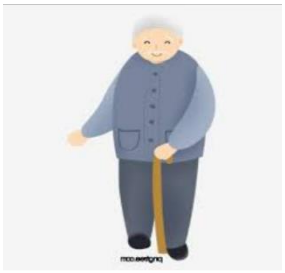

ولقد أفزعني ذلك الطارق وتوقعت كل شيء إلّا الشي الذي طُرق الباب من أجله، وما إن فتحت الباب حتى وقع بصري على رجل قد تجاوز الستين من عمره حتى صار كبحيرة غاضت من بعد امتلاء، أو حديقة جفّت بعد أن كانت غنّاء.

فبادرته قائلاً: إن لم يكن أمراً مهماً فلي معك شأنٌ آخر.

الرجل: إنّه مهم جداً، أريد منك أن تأتي معي لتعقد لي على امرأة

فقلت له: أو هذا أمرٌ مهم يا هذا؟ ألا تستطيع أن تأجّله حتى الصباح فتحضر مكتبي ومعك المرأة ثم نعقد لك عليها؟

الرجل: يا سيدي إن هذه المرأة مقطوعة من شجرة ولا يوجد مكان تنام فيه ولذا أريد أن أعقد عليها لتنام في...

فقلت له: لتنام في أحضانك... أليس كذلك؟

ضحك الرجل وظنّ أني سآتي معه فبدا عليه البشر إذ ظن أن ليلة خاصة بانتظاره **ففاجأته قائلاً:** لا بد أن تنتظر حتى الصباح وضع المرأة عند بعض الجيران ريثما يحين الصباح.

الرجل -وقد كاد أن يغمى عليه كأنه ابن عشرين لا ابن ستين-: لماذا لماذا يا حضرة القاضي؟

فقلت له: أنا لا أستطيع أن أعقد لرجلٍ على امرأة حتى أستفصل عنها هل هي ثيّب أم بكر؟

فإن كانت بكراً فهل أهلها موافقون أم لا؟

وإن كانت ثيّباً فهل هي مطلّقة أو أرملة؟

وإن كانت كذلك فهل مضت عدّتها وهل تملك من وسائل الإثبات ما يصدّق دعواها، إن هذه الإجراءات لا بدّ منها قبل العقد.

ثم إنه بعد كل ما قلته قال لي: تستطيع أن تأتي وتسألها عما تريد

فقلت له: انتظر يا هذا حتى الغد فو الله لو كنت قيساً وتريد أن تعقد على ليلاك ما كنت بهذه الحالة.

وأخيراً انصرف الرجل، وما إن حان الصباح حتى كان أوّل الحاضرين مع تلك المرأة إلى مكتبي.

وجاءا معاً ودخلا معا وجلسا متقابلين وعينه لا تكاد ترتفع عنها وكان لعابه يسيل عليها، يا له من رجلٍ عجوز مقرف ويدعو حاله للاشمئزاز.

وكانت تلك الفتاة ما تزال في ريعان الصبا! لم تتجاوز العشرين من عمرها ومعنى هذا أن فرقاً هائلاً في السّن بينها وبينه.

فقلت لها: هل ترضينْ به زوجاً لكِ وبينكما من السّن ما بينكما؟

قالت ــ وكأنها لا تبالي-: نعم نعم.

قلت: دعينا من هذا الآن وحدّثيني عن نفسك.

فأعطتني بطاقتها الشخصية ثم روت لي قصة لا يُعرف أولها من آخرها ولمّا سألتها عن بعض التفاصيل روتها بشكل مختلف وضاعت ساعة أو أكثر ونحنُ على هذا الحال.

فقلت للرجل: إن هذه الفتاة إمّا جاءت هنا لتتسقط الأخبار، وإمّا أنّها مجنونة يدل ذلك على لباسها وكيفية جلوسها وكلامها وقصتها.

وفــوق هــذا وذاك فقــد ادّعــت أنهــا مطلّقــة وهــي لا تملــك أوراقــاً تثبــت ذلــك، ولــيس عنــدها شــهود يشــهدون علــى ذلــك، فكيــف لــي إذن أن أعقد لك عليها؟ وهل لو تم الأمر تتحمل مسؤوليتها؟

قال الرجل: لا.

فقلــت لهــا يــا امــرأة: إنّ أمــرك مشــكوك فيــه فإمــا أن تكــوني عينــاً أو أذُناً لجهة ما، وإمّا أنّك كاذبة، وإمّا أنكِ مختلّة عقلياً.

ولــم يــؤثر بهــا هــذا الكــلام ممــا يــرجّح أن بهــا خلــلاً عقليــاً، وطلبــت منها أن تغادر هذه المنطقة فوراً وتعود من حيث أتت.

ولمّــا أن غــادرت عــاد الرجــل **وقــال:** يــا ســيدي أرجــو منــك أن تعقد لي عليها

فقلــت لــه: أو بعــد كــلِّ مــا ســمعت؟ إنــك والله لأكثــر جنونــاً منهــا، وأنــا كذلك إن عقدتُ لكما.

وذهبــت المــرأة ودارت الأيــام دورتهــا ودخــل علــيّ رجــلٌ يعمــل ســائقاً، **فقــال:** يــا ســيدي إنّــي تعرفــت علــى امــرأة وأريــد أن تعقــد لــي عليهــا، لقــد اجتمعــت بهــا منــذ يوم وأنا أريد أن أتزوجها وأستر عليها.

فقلت: لعلها فلانة!

فصُعق الرجل وقال: نعم إنّها هي ولكن كيف علمت؟

فقلت له: إنّ جميع الرجال هنا يريدون أن يستروا عليها.

٢١-عجز جنسي

كان رجلاً في الأربعينَ من عمره، ولكنّك عندما تراه تظنّه قد تجاوز الخمسينَ أو الستين، فأسنانه أكثرها قد غادر فمه، وشعره قد انحسر عن رأسه ولم يبقَ منه إلّا ما تبقيه رياح الشتاء من أوراق الشجر، وأمّا ظهره فقد حنتهُ السّنون.

وكان بيننا صلةٌ طيبة، فقد كان رجلاً طيباً، قليلَ الكلام، كثيرَ الصمت، تقتحمهُ العيونُ، ولا تميلُ نحوه الآذانُ.

وكان عندما يراني يسلم عليّ ثم يفارقني، وإن جمعنا مجلسٌ لاذ بالصمت.

غير أنّه ذات يوم سلّم عليّ من بعيد، ثم أقبل نحوي وصافحني بحرارة، **فقلت في نفسي:** إن وراء سلامه هذا ما وراءه، وصدق ظنّي.

الرجل: هل أنت متفرغ بعد صلاة العشاء؟

القاضي: ولمَ يا هذا؟

الرجل: أريد منك أن تصحبني إلى منزلي، علك تنهي النزاع بيني وبين زوجتي.

القاضي: حسناً حسناً، نلتقي بعد صلاة العشاء، إن الله قدرو شاء، وأمضي معك حيثُ تشاء.

وسرعانَ ما وجدتُ نفسي في منزلِ ذاك الرجل، وكان حالُ المنزل كحالِ صاحبنا، وفجأة طلعت عليه امرأةٌ من رآها علم أنَ خصومة شديدة وقعت بينها وبين الأنوثة، ويخالها الإنسان لولا الملابسُ التي عليها رجلاً من الرجال، عابسَ الوجه، مقطبَ الجبين، متجهّزاً لشنّ الغارة على الأعداء.

القاضي-هامساً-: من هذه؟

الرجل-هامساً-: إنها زوجتي، وعلَّ الله أن يوفقك للإصلاح بيننا.

المرأة-تخاطب زوجها-: من هذا الرجل؟ ولماذا أتيت إلى هنا؟ ألم أطلب منك أن تطلّقني وتريحني؟

الرجل: إنه القاضي.

المرأة: بلا قاضي بلا...طلّقني يا هذا وأرحني من عذابي!

القاضي-مخاطباً المرأة-: هدئي من روعك يا أختاه.

فإنما أنا هنا للإصلاح بينكما، والصلح خير...

المرأة-مقاطعةً القاضي-: لا أريد صلحاً ولا ما يحزنون، اطلب منه أن يطلّقني ويريحني من عذابي.

القاضي: حسناً حسناً، سيكون لكِ ما أردت، ولكن حدّثيني عن السبب، فوراء كل طلاق سبباً.

المرأة-وقد بدا عليها بعض الارتياح-: ألم يخبركُ هو؟

القاضي: لا لا، بل أخبريني أنت

المرأة-وقد بدا عليها الارتباك-: إن زوجي هذا...إن زوجي هذا...

القاضي: ما له؟

المرأة: إن زوجي هذا لم يطأ لنا فراشاً منذ أربع سنوات.

القاضي-مخاطباً الرجل-: أحقاً ما تقوله هذه المرأة؟

الرجل: نعم ونكس رأسه، وفي منظره ما يصدّق المرأة لو حاول أن يكذبها.

القاضي: لمَ لم تخبرني بحقيقة الأمر؟

وعلى كل حال فهل عالجتَ نفسك؟

الرجل: نعم ولكن العلاج لم يجدِ نفعاً!

المـــرأة-وكأنهـــا فـــازت بمعركـــة حطّـــين-: أســـمعت يـــا ســـيدي القاضـــي، أسمعت؟

هـــا هـــو ذا يعتـــرف أمامـــك بأنـــه عـــاجز، وعـــاجز عـــن معالجـــة عجـــزه، وأظن أنّ من حقي أن أطلب الطلاق.

المـــرأة-تواصـــل-: ولا تظـــنَّن يـــا ســـيادة القاضـــي أنّـــي أريـــد أن يطلّقنـــي لكـــي أتـــزوج مـــن بعـــده، (هكـــذا قالـــت حينهـــا)، وإنمـــا لكـــي أرتـــاح، فـــالمرأة إمّـــا أن تكـــون فـــي كنـــف زوج يشـــبعُ بطنهـــا، ويحصـــن نفســـها، وإما أن تكون بلا زوج فتنسى الرجال وشؤونها.

وأمـــا مـــن كانـــت فـــي مثـــل حـــالي فكمـــن يعمـــل فـــي مطعـــم وحـــرامٌ عليه أن ينال من طعامه شيئاً فهو في عذاب الحرمان أبداً.

القاضي-مندهشاً-: أصبتِ أصبتِ.

القاضي-مخاطباً الرجل-: وماذا ترى؟

الرجل: ما تراه أنت؟

القاضي: الخيرُ لكَ ولها في أن تتخالعا.

وهذا ما كان ولكن شأن تلك المرأة لم ينتهِ بعدُ.

٢-الحسناء والوحش(بالمقلوب)

كان شاباً بينَ العشرينَ والخامسةِ والعشرينَ من عمره.

وقد حَبَاه اللهُ وسامةً في منظره، ورجاحةً في عقله، وألقى محبته بينَ أقربائه وأصدقائه وجيرانه وطلابه.

غير أنه-ككثيرٍ من الشباب-كان شديد الحاجة للزواج، وقد أضرّت به تلك الحاجة، فشغلت تفكيره في نهاره، وأرقته في ليله، وأبعدته عن دراسته، وعن أصدقائه، وحملته على ارتكاب معاصي النظر، وما أيسَرها في عصر الإنترنت!

وفجأة انقطع ذاك الشاب عن زيارتي، وكان كثير الزيارة لي والتواصل معي ثم علمت بعد حين أنّه تزوج فأسعدني ذلك، وسرّني، فقد كنت أعلم مسيس حاجته للزواج إذ طالما أفضى لي بما في نفسه، على أنّ في وجهه شاهدا عن الخبر.

ومما أثار تعجبي أنه لم يدعني إلى وليمة عرسه، ولا إلى حفل زفافه، ولكني قلت لعله لم يولم، ولم يقم حفل زفافٍ، وهل يستطيع الشباب اليوم أن يصنعوا طعاماً أو يقيموا أفراحاً؟

ثم علمت أنه تزوج من امرأة تكبره في السن، وقد اختبرت الزواج قبله، ورزقت خمسة أولاد، أكبرهم في سن قريب من سن هذا الشاب!

ولكنّ المفاجأة ليست هنا-لأن الكثير من الشباب اليوم صار يتزوجون مثل هذا الزواج بسبب الظروف والأوضاع الاقتصادية الخانقة-بل كانت المفاجأة أن زوجته هي تلك المرأة التي طلّقتها من زوجها لأنه كان عاجزاً جنسياً، ولعلكم تذكرون كيف كان شكلها!

وقلت في نفسي: كيف يطيق شاب مثلَه أن ينظر إليها فضلاً عن أن يقترن بها، فضلاً عن أن...

ولكنّها الحاجة الملحّة للزواج تعمي البصر، وتحقق القدر.

وعادت إلى ذاكرتي كلمتها وأنا أطلّقها من زوجها **" إني لا أريد الطلاق لكي أتزوج من جديد، بل لأرتاح مما أنا فيه، وأتفرغ لأولادي الخمسة"**

وها قد صاروا ستة!

وعلى كل حال فما جرى أمرٌ أحلّه الله فلا سبيلَ للطعن فيه، وكم من الرجال يتزوجون فتياتٍ بسن أولادهم بل بسن أحفادهم!

وكدتُ أنسى الأمر لولا أنَّ والد ذاك الشاب زارني يشكو ولده وما فعله ولده، وسكت فلم أدرِ ما أقول.

وقلت في نفسي: أوليس الشاب محقاً؟ وهل يترك نفسه حتى يقع في الحرام الذي تيسرت أسبابه وفُتحت أبوابه، وغُلقت أبواب الحلال.

وَهبْه لم يقع في الزنا، أوليس في التفكير والنظر ما يعكر صفاء القلب ويشوش الخاطر؟

ثم أوليس والدُ الشاب محقاً أيضاً؟

كيف لا وحلم كل أب أن يختار لولده زينة الفتيات جمالاً وأدباً وحسباً ونسباً، ثم يدعو الناس إلى وليمة ولده، وحفل زفافه، ثم يزفّه بنفسه إلى مسكنهِ الجديد مع عروسه؟

وقاطع الأب حديثي مع نفسي، وأعاد طرح سؤاله وشكواه من جديد

فقلت له: هل أنت قادرٌ على حل مشكلة ولدك؟

الأب: لا، وأي أب قادرٌ اليوم على تزويج ولده؟ اللهم إلّا أن يكون...

فقلت له: إذن دعْه يحلُّ مشكلته بنفسه، وقد فعل

٢٣-زوجٌ مخادع

بينما كنتُ في مكتبي إذ دخلت عليَّ فتاة شابة، ومعها والداها يحيطان بها إحاطةَ جناحي الطائر بالطائر، وكان الغضبُ بادياً على الجميع.

والد الفتاة: سلام الله على القاضي.

القاضي: وعليك وعلى من معك السلام، خيراً إن شاء الله.

والد الفتاة: إن ابنتي هذه قد تزوجت قبلَ ثلاثة أشهر، وقد طلّقها زوجها، وهو لا يريد أن يعطيها أيّاً من حقوقها، لا مقدّم مهرها ولا مؤخره، ولا نفقة العدّة!

القاضي: حسناً حسناً، أعطني اسمه، وعنوانه، ولسوف أستدعيه وأستفسر منه.

واستدعى القاضي زوج تلك الفتاة، وكان شاباً غراً مغروراً، تبدو عليه علامات المكر وعدم المبالاة بالآخرين.

القاضي: لكَ الحق في أن تطلّق زوجتك.

ولكن لماذا لا تريد أن تعطيها حقوقها التي أمر الله لها بها؟

الشاب (مبتسماً ابتسامة ماكرة): لقد طلقتها ولا أريد أن أعطيها شيئاً، لأن أهلها خدعوني وغرّروا بي وغشّوني.

القاضي: أفصح وأوضح، كيف خدعوك؟ وكيف غشّوك؟

الشاب: لقد رأيت تلك الفتاة فأعجبتني، وسرعان ما أتيتُ صحبةَ أهلي وطلبتُ يدها من أهلها للزواج فوافقوا.

القاضي: حسناً وماذا بعد؟

الشاب: ولكن الذي حدث أننا وفي ليلة الزفاف وبعدما جرى بيننا ما جرى، نمنا، وبدلاً من أن أستيقظ كما

يستيقظ أي(عريس) على ثغرٍ مبتسم في فمها، استيقظت على فراش مبلل من بولها.

القاضي: ماذا تقول؟

الشاب: نعم يا سيدي هذا ما حدث، لقد بالتْ وهي نائمة كما يبول الطفل الصغير، وقد تجاهلت الأمر تلك الليلة، ولكنه صار يتكرر كل ليلة، وإن شئت اذهب إلى منزلي ولسوف تشم رائحة البول وأنت على باب الدار.

القاضي: ولكن لماذا لم تعالجها؟

الشاب: لقد حاولت، ولكن العلاج لم يجدِ نفعاً!

القاضي: حسناً اذهب الآن، ولسوف أستدعيك غداً أو بعد غدٍ إن شاء الله.

واستدعى القاضي الفتاة وأهلها ليتأكد من صحة أقوال ذاك الشاب.

والدة الفتاة: إن ما قاله ذاك الشاب عن مرض ابنتي لهو صحيح، وقد أصابها ما أصابها بسبب خوفها من القصف المتكرر الذي نتعرّض له منذ سنوات.

ولكن الذي كتمه عنك هو أنه يعلم بهذا الأمر قبل الزواج، حتى أنّي عندما أخبرته بمرضها **قال لي:** إنه لا يمانع ولو أنها بالت عليه! (هكذا قال يومها)

وجمع القاضي بين الجميع، وبعد أخذ وردّ أقرَّ الشاب أنه كان يعلم بحقيقة أمر الفتاة.

القاضي (مخاطباً الجميع): يا أيها الشاب إن الزوج عندما يقدم على الزواج من فتاة مريضة، وهو يعلم جليّة أمرها فمعنى هذا أنه لم يتعرض لخديعة أو غش، فإمّا أن يصبرَ على حالة زوجته وله من الله الأجر، وإمّا أن يطلّقها ويعطيها كامل المهر.

وأن تعطيَها حقها في الدنيا خيرٌ من أن تأخذه منك يومَ القيامة يوم لا درهم ولا دينار.

الشـــاب (مخاطبـــاً القاضـــي): لا مشـــكلة فحســـناتي كثيرة، ولا مانع أن أضحي ببعضها يوم القيامة.

القاضـــي (وقـــد أصـــابه الـــذهول مـــن كـــلام الشـــاب): أي كلام هذا يا هذا؟

أمستخفٌ أنت بي أم بذاك اليوم الرهيب؟

لقد حكمت عليك بأن تعطي المرأة كامل حقوقها.

قَصَصٌ من تلكَ الأيام

١-موقف مؤثر (م.ع)

طلبتُ إلى طالباتي السالكات إلى عالم الإبداع أن يفتّشن في حقائب الماضي عن موقف ما يزال رغم مرور الزمن غضاً، طريّاً، نازفاً، فوّاحاً.

وقد كنتُ ألزمت نفسي أن أكتب فيما كلفتهنّ الكتابة فيه- وليتني لم أفعل-ولذلك عدت أنا إلى حقائب الماضي، أفتّش فيها، فوجدتها ملأى بالأحزان، وبقليل من الفرح، فصرتُ حيران ما آخذ منها وما أذرُ، وصار حالي كما قال القائل:

تكاثرت الظباء على خراشٍ فما يدري خراشٌ ما يصيد

وعلى كل حال فثمّة موقف لا يمكن أن أنساه أو أن أتناساه.

بدأ الأمر برؤية مناميّة، وانتهى بتحقق تلك الرؤيا، وكأنها قصة يوسف، ولكن ما بين أوّلها وآخرها يخالف تلك القصة، فبطلُ قصتنا ضُرّجَ قميصه بالدماء الحقيقية بعد أن عدا عليه الذئب، وافترق عن والديه وأخوته، بل وعن وزوجته وابنتيه الصغيرتين التي اخترت أنا لهما الأسماء فراقاً لا ينتهي قبلَ يوم الدين.

رأيتُني أنا وصديقي ذاك نسيرُ في طريق وكنت أنا أتقدمه، ولمّا وصلنا إلى شارع تمرّ به السيّارات تقدمني وأخذ بيدي يجرّني خلفه فنزعت يدي من يده **وقلت له:** ما ينبغي لاثنين أن يمسكا بيد بعضهما في طريق، وما إن ابتعد عني حتى صدمته سيّارة فأردته قتيلاً.

استيقظت من المنام فزعاً، **وقلت في نفسي:** إن مكروهاً سيحلُّ بصديقي ذاك ولعله الموت.

ولكن الذي حدث أثناء ذلك اليوم كان أمراً عجباً، فقد أُصبتُ أنا بشظيّة كادت تودي بحياتي ولكن الله سلّم، ونُقلتُ إلى المشفى على عجل وكان من بين عوّادي ذاك اليوم صديقي ذاك، فلمّا خلوتُ به قصصت عليه نبأً تلك الرؤية، **فابتسم قائلاً:** ولكني أرى المكروه أصابكَ أنت لا أنا، فضحكنا وكدنا ننسى الأمر.

ولكن قبل فجر اليوم التالي رأيت رؤيا أخرى توصلُ إلى المعنى ذاته، **فقلت**: إنّها رؤيا حقّ لا محالة كيف لا وقد تكررت.

ولم يرتفع النهار حتى جاءني رجلٌ **يقول**: ألم تدرِ ما حدث؟؟

قلت له: ماذا حدث؟

قال: لقد استشهد اليوم شابٌ اسمه....

وقاطعته قائلاً: فلان وذكرت اسم صديقي.

فذُهل الرجل وقال: ما أدراك وكنت راقداً في المشفى؟؟

فقصصت عليه النبأ فازداد عجباً.

وقال: لمَ لم تخبره فلعله يأخذ احتياطه أو على الأُقل يودّع أهله أو...

فقلت له: مهلاً يا رجل، إن من أركان الإيمان عندنا -أمّةَ الإسلام- الإيمانَ بالقدر ومعناه أن ما قدّره الله سيقع لا محالة مهما اتّخذنا من التدابير ومهما فعلنا من الاحترازات ومهما ومهما....

ولم تمضِ سوى ساعةٍ حتى أتوا بجثمانه إلى حيث أنا في المشفى، فقمتُ من سريري وأقبلت نحوه فرأيته كأنما هو نائم مستغرق في نومه، فقرأت الفاتحة وأهديت ثوابها إلى روحه الطّاهرة وذرفتُ من الدموع حُزناً على فراق هذا الصديق العزيز، ولم يمضِ غير قليل حتى جاءت أمّه وأبوه وبعض أخوته فأحاطوا بجثمانه فتنحيتُ جانباً وازداد حزني عليه لمّا أن

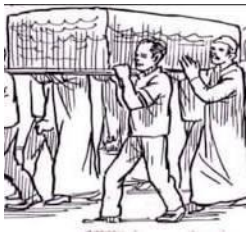

رأيت تلك الدموع الباكية عليه، ثم حُمل الجثمان ومُضي به إلى حيث منزله إلى يوم يبعثون وسرتُ خلف النعش وأنا لا أكاد أستطيع أن أمشي من شدة الألم حتى وصلنا لمثواه الأخير فتقدمت وصلّيت عليه وودعته وداع فراق.

رحمك الله يا صديقي وجعل مثواك الجنّة.

ثم إني زرت أهله فيما بعد وسألتهم عن تفاصيل ذاك اليوم، فأخبرتني أمّه أنّه في صبيحة ذاك اليوم أرادت أن تعدّ له طعاماً **فقال لها:** إنّي جائع ولكنّي أشتهي طعاماً لا يوجد عندكم، فلم تفهم أمّه مراده حينها ولكنّها فهمته فيما بعد.

وكان فيما أخبروني به أن شظيّة صغيرة جداً هي التي أردته قتيلاً، وهي عشرة أضعاف الشظيّة التي أصابتني، لكنّها أصابته في رأسه فقتلته، وأصابتني في قدمي فنجوت ولكن إلى حين استكمال أجلي...ولكلِ أجل كتاب.

٢-أنا جوعان

إنّ البؤس والشقاء والحزن والألم والأسى والقهر.... كلماتٌ متفرّقة في معاجمنا العربية فالبؤس بائية والشقاء في باب الشّين...

غير أن هذه الكلمات المتفرّقة اجتمعت في وقت واحد أو قل على طفل هو موضوع قصتنا هذه ويا لها من قصة!

صليت العصر ثمّ قصدت المطعم الوحيد المتبقي في تلك البلدة التي أسكَنَتْني إيّاها الأُقدار زمنَ حاولنا تغيير الأقدار.

دخلت المطعم فلم أرَ فيه إلّا القليلَ من الطعام المتبقي من الفول والحمّص والفلافل، فتذكرت أمنية بني إسرائيل يوم ملّوا نعم الله المتواصلة من المنّ والسلوى فزهدوا فيها وطلبوا عوضاً عنها فوماً وعدساً وبصلاً، يا لهم من قوم، وليتهم يعطوننا المنّ والسلوى ولهم ما في غوطتنا من الفول والعدس والبصل...

ولم يكن ما معي من المال يسمح لي بأن أشتري فوق ستة أقراص من الفلافل التي انكمشت وانضم بعضها في بعض كما ينكمش سجين في زنزانته ليلة شتاء باردة بلا غطاء عاري الجسد.

ثم يممتُ وجهي وبطني شطر الخبّاز واشتريت ثلاثة أرغفة لو جُمعت وضُربت باثنين –كما يعبر علماء الرياضيات-ما بلغت مقدار رغيف واحد من الأرغفة الحكوميّة التي كانوا يسمونها الأسديّة.

وجمعت خبزي وأقراصي وأحلامي في كيس صغير وانطلقت نحو البيت فأنا من الأمس لم أُطعم شيئاً، **وصرت أقول لنفسي:** الآن سأصنع كأساً من

الشاي على الحطب لا لأني من الطراز القديم بل لأن الغاز صار من التاريخ في غوطتنا...ثم...ثم...سألتَهم الأُقراص الستة بعد أن أوزعها توزيعاً عادلاً على الأرغفة الثلاثة وأضع فوقها بعض المخلل الذي جعله صاحب المطعم هدية ليشجعني على زيارته مرّة أخرى.

وبينما أنا أسير نحو البيت مسرعاً إذا أنا بطفلٍ، أو قلْ بقايا طفل، أو قلْ طفل بلا طفولة يستوقفني **قائلاً:** عموعمو

فوقفت إليه إذ استوقفني، ونظرت إليه إذ كلّمني، فإذا أنا ببقايا طفل بلا طفولة أمامي، كان قصيرَ القامة كأنه زرع لم تعرف ذاكرته الماءَ، غائرَ العينين كما غارت الرجولة وغاضت في العالم من حولنا الذي يشاهد ويكتفي بالمشاهدة وبالاستنكار غير المفيد أحياناً، وكان شعره كأنه لا يعلم اختراعاً اسمه "المشط" يجريه المرء على رأسه فيرتب له شعره ويهذبه، وكانت ملابسه متّسخة إلى درجة أنك لا تعلم ما كان لونها الأصلي، وأمّا حذاؤه فقد كان بلا حذاء.

يا الله إنّي عاجز عن متابعة الوصف والدموع التي ذرفتها ذاك الحين عادت إليَّ وأنا أكتب هذه القصة مع أن بينهما سنين عددا.

قلت: ماذا تريد يا بني؟

قال: عمو عمو أنا جوعان فأطعمني.

قلت له: كما تريد كما تريد يا بني.

فجلست أنا وهو على قارعة الطريق وكأننا نسينا أننا في الطريق وعلى الطريق ولكن ما قيمة ذلك؟؟

وأمسكت برغيف خبز ووضعت عليه قرصين مع بعض المخلل وحولت المجموع إلى لفافة فلافل "سندويشة فلافل"، فأخذها الولد ومضى مسرعاً كأنه يخاف أن أعود في هبتي وآخذ منه اللفافة بعد أن صارت في يده كقط ظفر بقطعة لحم وحوله

عشرات القطط تحاول أن تأخذ ما في فمه أو تشاركه فيه على الأقل.

وإلى الآن ما زلتُ أذكر شكله ولا أعرف اسمه، رحم الله الطفولة فيه ورحم الله الطفولة من أجله.

ولم أمضِ غيرَ قليل حتى استوقفني فتىً آخر خلْته هو لكنه لم يكن هو وكأن المأساة وحّدت بين الجميع وصاروا نسخاً متكررة لها.

فقلت: ها هو ذا فتىَ آخر يستوقفني ويستبكيني، حتى لقد خلتُ نفسي تجاوزت الملك الضلّيل (أمرؤ القيس) الذي قيل فيه إنه أول من وقف واستوقف وبكى وأبكي عندما قال:

قفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ

يا له من ملك، لقد وقف على أطلال المحبوبة، وأنا أُقف على أطلال الطفولة، فمن أجدر منّا بالوقوف والبكاء؟

وصنعت له ما صنعت للفتى الأول، وصنع معي ما صنع الفتى الأول، أولم أُقل إن المأساة توحّد الجميع؟

ثم مضيت نحو البيت ولم يبقَ في كيس طعامي وأحلامي سوى رغيف صغير وقرصين صغيرين.. فوالله لو استوقفني ثالث لأطعمته ما تبقى معي، فقد والله وجدت من السعادة والفرح ما ملأ قلبي فوق ما كان سيملأ بعض بطني من ذاك الطعام.

وأكلتُ ما تبقى فخُيّل إليّ أنّ أمامي دجاجاً وأرزاً و...مما لم أعد أذكر اسمه في تلك الأيام.

لقد بارك الله لي فيما تبقى فأكلت وشبعت وشكرت الله عزوجل.

اللهم ارحم الطفولة وارحم الأطفال

٣-بائعُ البنزين

كان الوقت ليلاً، وكان الظلامُ دامساً، كيف لا والقمر في آخر أيامه، والكهرباء قد مُنعت عن الغوطة منذ أكثر من سنة!

وكان على قارعة الطريق فتى صغير لا يتجاوز العاشرة من عمره، وكان بين يديه بعض من زجاجات البنزين يعرضها للبيع، وذلك أن هذه المادة -كغيرها من المواد الضرورية- مُنعت من الدخول إلى الغوطة منذ أكثرَ من سنةٍ!

فقلت في نفسي: لعل هذا الفتى كغيره من فتيان الغوطة فقدوا آباءهم بسبب الاعتقال أو القتل أو القتال، وفجأة وجدوا أنفسهم وهم في هذا السن الصغيرة مسؤولين عن إعالة أسرهم! وكان حقهم الآن أن يكونوا في أسرَّتِهم.

وفجأة توقف أمام هذا الفتى وهو جالس-وبقي جالساً- سيارةٌ تقلّ عدداً من المقاتلين المدجّجين بالسلاح، وسألوه عن ثمن الوقود، فوجدوه غالياً، وبعد أخذٍ ورد تركوا الفتى ومضَوا لسبيلهم.

وكنت أرقب هذا المشهد، **فقلت في نفسي:** ما هذا؟ وما الذي أراه؟

فتى صغير في مكان منقطع.

وشباب مدججون بالسلاح.

ومع ذلك لم يخف منهم، ولم يخوفوه، ولم يغصبوا ما معه؟

لقد خافوا من الله فأمِنهم هذا الفتى على نفسه وبضاعته!

وقديماً قالوا: لا تخف ممن يخاف الله، وخفْ ممن لا يخاف الله.

وقال القلم

١-شخصيّة مؤثرة في حياتي

نظرت إلى المرآة ذاتَ يوم فرأيت فيها انعكاس صورتي، **فقلت:** إن صورتي-وصورة سائر البشر- هي صنيعة الله عزوجل فهو الذي صوّرنا ونحن في الأرحام على ما يشاء بيد ملك التصوير.

ثم نظرت إلى نفسي فرأتني أفكر وأذهب وأجيء وأشعر بوجودي في هذا العالم فعلمت أنّي حي وعلمت أن سرّ حياتي هي تلك الروح التي نفخها ملك الأرحام في أجسادنا ونحن ما نزال بعد في أرحام أمّهاتنا.

ثم إنّي نظرت إلى تصرفاتي التي تنبعث من ذاتي فرأيتني أحب أشياء وأكره أخرى، أفرح بأشياء ولا أبالي بأخرى...فطرحت على نفسي هذا السؤال الكبير

من صنع شخصيتي؟

عُدت أفتّش في نفسي عن جواب لهذا السؤال

فقلت لعله والدي رحمه الله فإنه كان رجلاً حكيماً يفكر ثمّ يعمل، يعتمد على نفسه ولا تمتدُّ يده ولا عينيه إلى ما منّ الله به على غيره، فهو رجل قنوع، وفوق ذلك صبور على مِحن الحياة وما كان أكثرها في حياته...ولكنّه كان قاسياً معنا وعلينا أحياناً، ولم يأخذ بيدنا يوماً إلى مسجد أو يقرئنا شيئاً من القرآن، لقد غذّى أجسادنا بالطعام ولكنّه لم يأخذ بيدنا إلى الله عزوجل، وأنا لست كذلك.

فقلت إذن لعلها أمّي فإنّها كانت طيّبة القلبِ، بسيطة تتعامل مع الأمور ببساطة وهي على عكس صفات والدي فلذا لم أرهما قد اتفقا يوماً من الدهر وكانت سريعة الغضب سريعة الرضا، ولكنّها كانت على غير ما عليه كثير من الأمهات حيث لم تكن تهتم بتعليمنا أو تدريسنا فقد كانت

أميّة لا تقرأ ولا تكتب، وكانت تغض النظر عن أخطائنا بدعوى الرأفة والرحمة، وأنا لستُ كذلك.

فقلت: إذن لعله مُدرّس من المدرّسين الكُثر الذي تعاقبوا على تدريسنا منذ كنّا صغاراً وحتى وصلت إلى مرحلة الدكتوراة ولكنّهم لا يتفقون على رأي فلكل شخصيّته وطريقته.

إذن فمن صنع شخصيتي؟

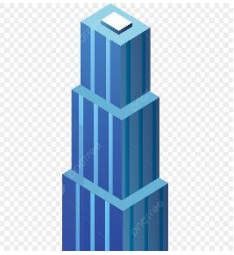

إنّ شخصيّة أيّ واحد منا مثل البناء الذي يتألف من أعمدة ولبنات، فلبعض الناس أثره في حياتنا كأُثر الأعمدة لا يقوم البناء إلّا عليه، ولبعضهم الآخر أثر كأثر اللبنات لا غنى عنها لصنع البناء.

وعلى كل حال

فقد حمدت الله أنّه لم يكن من بينِ من أثّر بي شخصُ سوءٍ من قريب أو بعيد، أو نجمٌ مزيف مثل نجوم الفن أو كرة القدم الذين فُتن بهم شُبّان هذا الزمن.

٢-الرجل الحكيم واختيار النّساء

شعر الأصدقاء الثلاثة بالملل فقد جرّبوا في أيامهم السالفة كلَّ ما من شأنه أن يبهج أو يُمتع ممّا حلّ أو حَرم، حتى أنه لم يعد هناك ما يستطيع أن يدخل السعادة على أنفسهم، ويبدّد ما فيها من غيوم الملل.

قال أحدهم: تعالوا بنا إلى شاطئ البحر نرقب غروب الشمس ونمضي بعضاً من الليل هناك.

وافق الصديقان الآخران على اقتراح صديقهم وانطلق الجميع يؤمّون شاطئ البحر بخطىً متثاقلة تدل على أنّ أصحابها قد فقدوا الحماسة نحو أيّ شيء.

ووصل الصحبُ وغروبَ الشمس، وصادفوا مع غروبها رجلاً غريباً تدلّ تجاعيد وجههِ على تقدّمه في العمر، وكان ذاك الرجل قد سبقهم إلى حيث يريدون، فألقوا عليه التحيّة ثمّ أسرّوا النجوى أن تعالوا بنا نهزأ به قليلاً، وكان الهزء بالآخرين مذهباً من مذاهبهم في اللهو والترفيه.

قال أحدهم: كيف أنت أيّها الرجل الغريب؟

الرجل: إن تحيتك لي بهذا الشكل هي الغريبة، إنّي معروف أكثر منكم حيث أهلي وبلدي، ولو كنتم هناك لكنتم أنتم الغرباء

الآخر ضاحكاً: عفواً وأعتذر عمّا قال صاحبي، كيف أنت أيّها الرجل العجوز؟

الرجل: لستُ بعجوز إنما العجوز من كان عاجزاً ولا أراني عاجزاً عن أيّ شيء تستطيعون فعله سوى عجزي عن إضاعة الوقت والتسكع والهُزء بالناس مثلكم، وإنّي لأتقن من مهارات الأحياء ما تعجزون عنه مجتمعين.

قال الثالث: عفواً عفواً وأعتذر عمّا قال صاحباي.. كيف أنت يا هذا؟

الرجل: أنا بخير يا هؤلاء

ولم تُعجب هذه الكلمة أولئك الشباب الذين امتلأت نفوسهم كبراً وغروراً وكذلك الأنفس عندما تخلو من الحق فإنها تمتلأ بالباطل.

وشعر الشباب أنهم هُزِموا أمام ذاك الرجل فقرروا أن يخوضوا معه جولة أخرى.

قال أحدهم: ما جاء بك إلى هنا؟

الرجل: قدماي كما جاءت بكم إلى هنا أُقدامكم.

قال الثاني: يقصد زميلي ما غرض مجيئك إلى هنا؟

الرجل: هو مثل غرضكم

قال الثالث: لقد أتينا إلى هنا لكي نروّح عن أنفسنا قليلاً بمشاهدة غروب الشمس خلف هذا البحر وها هي ذي قد غربت ولم نشعرْ بها لانشغالنا بالحديث معك

الرجل: لا تحزنوا فإن الشمس إذا غربت ستُشرق من جديد ثم تغرب وهكذا، ولكن أنتم إذا غربت شمس أعماركم فلن تشرق من جديد أبداً.

وقعت هذه الكلمة موقعها في أنفس أولئك الشباب ولعلهم وللمرة الأولى يسمعون حديثاً عن الموت والرحيل والغروب، فهدأت أنفسهم وانكسرت حدّة شياطينهم، فجلسوا بأدب وتحلّقوا حول ذاك الرجل العجوز، وجعلوا يسألونه عمّا يدور في خواطرهم، وجعل يجيبهم بأمتع الإجابات وأكثرها حكمةً وتشويقاً، وحصلوا من المتعة والأُنس في مجالسةِ هذا الرجل فوق ما كانوا يحصلون عليه من مُتع الجسد مما أحلّ الله أو حرّم.

ولم يشعر الجميع إلّا وصوت التكبير ينبعث من المساجد القريبة مُعلناً عن ميلاد يوم جديد، وعندها قام أولئك الشباب بنفوس غير التي جاؤوا بها وودّعوا ذلك الرجل على موعد جديد عند غروب شمس هذا اليوم الذي شهدوا ميلاده معاً.

وما أسرع ما جاء الميعاد الجديد وها هم الشباب يتحلّقون حول الرجل من جديد.

أحدهم: حدّثنا يا سيدي

الرجل: هل أنتم متزوّجون؟

الأصدقاء: لا ولو كنّا متزوجين لما وجدتنا نتسكع هنا وهناك، فإن في الزواج والإنجاب ما يشغل الإنسان ويستنزف فكره ووقته.

الرجل: ليحدّثني كل واحد منكم عن فتاة أحلامه وكيف يريد لها أن تكون

قال أحدهم: إنّي شاب أعشق الجمال وأريد عندما أتزوج أن أتزوج من أجمل النساء

الرجل: وما هو مذهبك في الجمال؟

الشاب: إنّ الجمال عندي في القامة أن تكون مديدة، وفي الوجه أن يكون أبيض، وفي العينين أن تكونا زرقاوتين كلون هذا الماء أو تلك السماء، إنه أن يكون الشعر أسود كالليل، والمنطق كنسمات السحّر، العيون فاترة من غير مرض، والرموش طويلة كأنها الرماح، ممتلئة الجسد من غيرِ سمنة، خفيفة الحركة من غيرِ طيش.

الرجل: حسبُكَ فقد أجدت وأفضت ولكن يا بني:

-متى كان الجمال هو جمال الصورة وحسب؟ أولم تعلم أن في المرأة جمالاً من نوع آخر يختبئ في داخلها.

- ثم اعلم يا ولدي أن الرجل منا يشعر بكمال جمال المرأة في أوّل لقاء بينهما، ثم ما يلبث هذا الإحساس بالتناقص بين كل

نظـرة ونظـرة، وبـين كـل لقـاء ولقـاء، كبحيـرة يسـقي النـاس بسـاتينهم منها، فماذا يبقى منها بعد حين وهي لا مددَ لها؟

-حتـى إذا مـا غاضـت البحيـرة وخلـتْ مـن مائهـا راح الرجـل يبحـث عـن امـرأة أخـرى ليُعجـب بهـا وراحـت تلـك المـرأة تبحـثُ عـن رجـلٍ جديد ليُعجب بها.

-علـى أن غالـب الجمـيلات كالسـنابل الفارغـة شـمخت برأسـها وخلـتْ مـن قمحهـا، فمثـل هـذه لا ترعـى وداً ولا تربّـي ولداً.

الشـاب الثـاني: أمّـا أنـا فـإنّي أحـب أن أُقتـرن بفتـاة حسـيبة نسيبة من عائلة كريمة أرتفع بهم وأفخر بمصاهرتهم.

الرجل: هذه نظرتك إليهم، ولكن كيف ينظرون هم إليك؟

إنهـم يرونـك أقـلّ مـنهم شـأناً فهـم أبـداً يتبرّمـون مـن مجالسـتك ويتبـرؤون مـن مصـاهرتك، وإنـك لتنـزل بمصـاهرتك لهـم فـي نفسـك أكثر مما ترتفع بمصاهرتهم في قومك.

وقـال الثالـث: وأمّـا أنـا فأحـب الجمـال والحسـب غيـر أنّـي أرغـب بـالزواج مـن امـرأة غنيّـة ولـو كانـت أرملـة أو كانـت أكبـر منـي عمـراً على أن تكفيني هم المعيشة ومغالبةَ الحياة.

الرجـل: إنّ المـرأة إنمـا يعلـو الرجـل فـي نفسـها وتُطـاع كلمتـه عنـدها مـا دامـت يـده هـي العليـا، فـإن صـارت يـدها هـي العليـا صـارت كلمتها هي العليا، فإن الكلمة مع اليد يعلوان معاً ويهبطانِ معاً.

وزوج المـرأة الغنيّـة مـا هـو إلّا زوج فـي عيـون النـاس، وأمّـا عنـدها فمـا هـو إلّا طـامع أو مخـادع ولا يرتفـع فـي نفسـها فـوق منزِلة الخادم وهو بعدُ في يدها كالخاتم.

الأصـدقاء: قـد رددت علـى كـلٍ منّـا مذهبـه فـي الـزواج وقتلـت فتـاة أحلامـه فـي نفسـه قبـل أن تراهـا عينـه، فمـا مذهبك أنت؟

الرجـل: لقـد تزوّجـت أكثـر مـن امـرأة، مـنهن مـن تـزال فـي عقـدتي ومـنهن مـن توفّاهـا الله إلـى رحمتـه ومـنهن مـن فارقتهـا بمعـروف بعد أن فات الإمساك بمعروف.

ومـذهبي أن الجمـال والمـال والحسـب ممـا يغـري بـالزواج مـن المـرأة، ولكنـه غيـرُ كـافٍ لوحـده فـي جلـب السـعادة ودوام المـودّة حتى يُضمّ إليه خُلقٌ قويم وتدين سليم.

إنّ المـرأة الجميلـة بـلا خُلـقٍ وبـلا ديـن قـد تنقلـب إلـى امـرأة فـاجرة في أيّ وقت من أوقاتها.

وإنّ المـرأة الحسـيبة بـلا خُلـق وبـلا ديـن تـرى نفسـها فـوق زوجها وتفتخر بأهلها وتزدري به وبأهله.

وإنّ المـرأة الغنيـة بـلا خُلـق وبـلا ديـن أشـبه مـا تكـون بالسـيّدة منها بالزوجة.

فـإذا ضُـمّ إلـى الجمـال أو المـال أو الحسـب الخُلـق والتـدين فـذاكَ المـراد، وإلّا كـان الجميـع كراكبـي سـفينة مُخرّقـة قـد تغـرق بهـم فـي أيّ حين.

٣-الانتحار

كانت حياةً لحياتي، كانت لعيني بصرها، ولأُذني سمعها، ولروحي روحها، لا تُطرب أُذني إلّا بسماع صوتها، أو الحديثِ عنها، ولا تقرُّ عيني إلّا برؤيتها، أو رؤية ما يذكّرني بها، ولا تأنس روحي إلّا بحضرتها.

وممّا زادها عندي أنّها كانت الأولى في حياة قلبي، وللمرأة الأولى في قلب الرجل كما للمولود الأول في قلب أمّه، فذاك بِكرُ بطنِها، وتلك بِكُر قلبه.

وممّا زادها عندي أنّني علقت بها وهي ما تزال في عقدها الأوّل وقلبها كالزهرة لم تنفرك بعد عن ثمرتها فكنت أنا –أيضاً- بِكرَ قلبها البكر.

وكنّا نكبر في عالم الأجساد يوماً على حين أنّنا نكبر في عالم الهوى ألف يوم كل يوم، فنحن عشّاق أبناء ألفِ عام من العشق والهوى والهُيام.

ولكن

متى كانت الرياح تجري كما تشتهي سفننا؟

إنّ للرياح خطتها المرسومة حتى قبل أن تبنى السفن وتمخر عُبابَ الماء.

ولو وقف الأمر عند هذا الحد إذن لهانَ الأمر وصغُر، ولكنّها جرت على عكس ما تريد سفينتنا فمزّقت شراعها، وحطّمت أخشابها، وأغرقت ركّابها.

وبخلوها من حياتي خلتْ حياتي من كلِ معنى، وصرتُ ميتاً، غير أنّ جثماني لم يوارَ الثّرى بعد، إذ كان له بقيّة من أنفاسٍ معذّبة لا بدّ أن يستوفيها لتحرق صدره بشهيقها وزفيرها.

وكان الناس إذا رأوني **قالوا:** رحمه الله ما كانَ أشدَّ عذابَهُ وألمَه!

وصار كلّ همي كيفَ أُريح ذاك الجسد المعذّب.

أبرصاصة تخترق قلبه الذي كان مسكناً للحبيبة ثم خلتْ منه كما تخلو الأعشاش من طيورها فتذروها للرياح.

أو بِسُمٍ يقطّع الأحشاء المقطّعة

أم بمديةٍ تقطع شرايين دمه فينساح هنا وهناك.

وأجمعت مع شيطاني بعد المداولة والمشاورة على أن أتردى من شاهقٍ، وكان تفسير شيطاني لهذا الاختيار هو أن الحب ترقٍ من أسفل إلى أعلى، فليكن الموت من أجل المحبوب إذن ترديا من أعلى إلى أسفل.

وما هي إلّا ساعات حتى رأيتني قد علوت الجبل المطلّ على بلدتنا التي شهدت ميلاد قلبي ووفاته.

وعاودني شيطاني قائلاً: عجّل عجّل فعمّا قريبٍ ستريح نفسك المعذّبة وتدخل سِفر الخالدين.

وعلوت صخرة هي ما استطعت أن أعلوها، وما إن هممت بما أنا عازمٌ عليه حتى سمعت صوتاً انبعث من بين تلك الصخور **يقول لي:** تمهّل تمهّل يا فتى، ولا تعجل قبل أن أراك

وتراني، وأسمع منك، وتسمع منّي، ثم افعل بنفسك ما شئت أو ما شاء لكَ شيطانك.

نظرت فإذا شيخٌ طاعنٌ في السّن، وضيء الوجه تبدو على تجاعيد وجهه آثار معاركه مع السنين وكأنها ندوب أصابته في معارك حربية، وقد أحنت السنون ظهره، وألبسته قبّعة بيضاء ناصعة، وأمّا عيناه فكانتا تبرقان كأنهما ميلاد يوم جديد.

ثم نزلت ومشيت نحوه وأنا مندهش وفي نفسي ألف سؤال: من هذا؟ ولماذا هو هنا؟ وماذا يريد منّي؟ وماذا يريد أن يقول لي؟

قال الشيخ مقاطعاً حديثي مع نفسي وحديث نفسي معي: اسمعْ يا بني إنّ سنّك يوحي بقصتك، أنت فتى أحب حتّى قتله الحب وأضناه الهوى، غير أن الأيام خذلته فلم تمنحه وصال من يحب فأحسَّ بأنّه قد فقد كل معنى للحياة، فهو يريد أن يتخلّص منها إذ عبست في وجهه بعد أن طال تبسّمها له.

الشاب: نعم نعم ولكأنك كنت معي يا هذا، فكيف عرفت تفاصيل ما جرى معي؟

الشيخ: إن قصص العشّاق متشابهة في نشأتها وفي ختامها وفي سيرها، حتى إنّي اكتشفت أن للحب قوانينَ يسير عليها.

الشاب-بعد أن أصابه الذهول من جديد-: أولخفقانِ القلوب، ولذوبان الأجساد، ولعذاب الأرواح قوانين!

ما أعجب ما تقول يا هذا!

الشيخ: إن قانون ما تسمّيه خفقان القلوب وذوبان الأجساد ...لا يخرج عن ثلاث قواعد:

١-ليس كل من أحب نال من يُحب.

٢-ليس كل من أحب ونال من يُحب وجد محبوبه على ما يُحب.

٣-ليس كل من أحب ونال من يُحب ووجد محبوبه على ما يُحب دام له من يحب.

الشاب: صدقت صدقت، أنا أنا...

الشيخ: أنت من أهل القاعدة الأولى

وارتسمت على فم الاثنين ابتسامة دلّت على ما سرى في نفس الفتى من روح جديدة.

ويواصل الشيخ قائلاً: اسمع يا بني إن الحب هو حياة القلب، وإن القلب الخالي من الحب قلبٌ ميّت، ولو كان ينبض على زعم الأطباء، وما أجهلهم بالقلوب! ولكن من تلك التي تستحق أن تنهي حياتك من أجلها وتصير من الخالدين.

الشاب: كأني سمعت بهذه الكلمة من قبل.

الشيخ: نعم إنها من وسوسة الشيطان، ولكن الخبيث لم يقلْ لك أين؟

إنه -**يا بني**- الخلود في نار جهنم، وكأن الخبيث يريد أن ينقلك من نار الهوى إلى نار الهوانِ في جهنمَ نقلةً واحدة لا تبقي ولا تذر.

يا بني إن فتاةً في الأرض لا تستحق أن يوردَ الإنسان نفسه المهالك من أجلها، وأي فرق بين قاتل غيره وقاتل نفسه بل إن الآخر أكثر قسوة وجهلاً.

بل ولعل تلك المرأة التي تريد أن تقتلَ نفسَك من أجلها، وتصبحَ بسببها من الخالدين تُجالس غيرك الآن وتمنحه من نفسها فوق ما منحتك من نفسها، وما أصدق من قال:

كالخان تسكنه وتصبح غادياً ويحلّ فيه بعدك من لا تَعلَمُ

الفتى وهو يكرر: ويحلّ فيه بعدك من لا تعلم، ما كان أحمقني وأغباني وأقصر نظري وأقوى شيطاني وأضعف إيماني.

ولكن

من أنت؟ ولماذا أنت هنا؟

الشـــيخ: أنـــا **-يـــا بنـــي-** وقبـــل مـــدّة طويلـــة مـــن الزمـــان أصـــابني مـــا أصـــابك ثـــم إننـــي جئـــتُ إلـــى هـــذا المكـــان أبغـــي منـــه مـــا تبغـــي أنـــت منـــه، فحـــال بينـــي وبـــين مـــا أريـــد رجـــلٌ فـــي مثـــل ســـنّي الآن، نـــذر نفســـه لحراسة أرواح المؤمنين من الخلود الشيطاني.

فلمّا علمت بوفاته جئت إلى هذا المكان، وقمت بما يقوم به.

قمت بحراسة أرواح المؤمنين

٤-بين عصفورين

كان عصفوراً ذا ريش أصفرَ فاقعٍ يسرُّ النّاظرين، وكان لون بطنه أبيض كالثلج الناصع، وتحت عينيه بقعة حمراء كأنما هي قُبلة عاشق غلتْ الدماء في عروقه حتى استحالت قبلة حمراء على خد حبيبه، وكان له عُرف كلون ريشه أصفر، وأمّا منقاره فكان كأنما قُدّ من عاج غير أنه لم يكن يطير إلّا بمقدار ما يسمح به عشّه المعدني من حديد.

وأمّا الآخر فكان بنيَّ اللون يضرب إلى سواد، وكان منقاره في لونه كأنمّا هو امتداد لريشه البني، وكنت ترى في سواد عينيه ما تراه في صقور السماء ونسورها، وكان يحلّق في السماء كأنما خُلقت له وحده من دون سائر الطير، فكنت تراه صاعداً مُحلّقاً حيناً، وهابطاً مُنّقضاً حيناً، كأنما في علوّه مطارِد وفي هبوطه مطارَد.

وفي ذات صباح وبينما كان البني يحلّق في سمائه صاعداً حيناً وهابطاً حيناً آخر، إذا به يلمح ذاك العصفور الأصفر قابعاً في عشه الحديدي يُغرّد بصوتٍ تفهمه العصافير فأمّه وحيّاه تحية العصافير للعصافير فرد عليه الأصفر بتغريدٍ أحسنَ من تغريده على سنة العصافير في ردّ السلام.

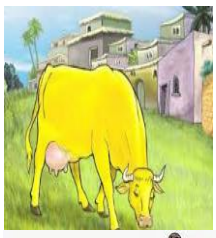

البني مخاطباً الأصفر: لقد أدهشني ريشك الأصفر الفاقع كأنما هو في لونه بقرة بني إسرائيل، وحيّرتني تلك الحمرة تحت عينيك، ووصلني وأنا بعليائي عزفك على أوتارك العصفورية، وأمّا منقارك فخُيل إليّ أنه من عاج ذاك الفيل المبارك الذي أُتي به لهدم بيت الله الحرام فكان سبباً في حمايته.

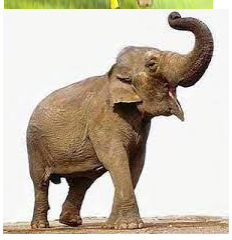

الأصفر: لا أظنّك يا هذا إنما هبطت عليّ هبوطَ الصقرِ وتركت سباحتك في جوِ السماء لكي تبدي إعجابك بريشي ومنقاري وتضرب لي الأمثال.

البني: أجل أجل، إنما أممتك لاصطحبكَ معي في رحلة إلى مكان وصفه لي صديقي النّاجي، الطعام فيه وفير، والماء فيه كثير، إذ فيه كما قال النّاجي مئةُ غدير وغدير، وهو أيضاً خالٍ من الصيادين من جنس البشر ال...

الأصفر: ومن صديقك النّاجي هذا؟

البني: أولم تسمع باسمه من قبل؟ أين تعيش يا هذا؟ وهل في بني العصافير من لم يسمع بالنّاجي بيك؟

الأصفر: لقد شوّقتني يا هذا لاستماع خبره فهلّا قصصت عليَّ من نَبَئِهِ؟

البني: نعم نعم، لقد كان صديقُنا النّاجي ذات يوم يحلّق في السماء يبحث عن رزقه المخبوء له، وفجأة وجد نفسه في وسط ساحة معركة من بلد يتقاتل أهله بعضهم مع بعض، ويتبادلون غير الشتائم الرصاصَ والقذائف التي تفتِك بالبشر والشجر والحجر، ومع ذلك نجّاه الله فاجتاز تلك الساحة المشؤومة بلمحِ البصر بأمان، فلذا سمّيناه بالنّاجي بيك، وهذا خبره وتلك قصته.

الأصفر: إنّ أمره لعجيب، وأعجب منه عندي حالُ أولئك الحمقى الذين يقتّل بعضُهم بعضاً، ويلعن بعضهم بعضاً، من أجل أيّ شيء؟

ولو أنهم أخذوا بمذهبنا في الحياة لَكُفوا القتال، ينطلق أحدنا مع إشراقة الشمس يطلب الرزق الذي يعلم أنّه ملاقيه لا محالة وهو أخمص، ويعود شبعانَ، ويكفيه في حياته غرفة واحدة لا سقف لها، على غصنِ شجرة مع أنثى واحدة تشاركه تلك الغرفة السماوية العجيبة.

البني: دعنا من هذا دعنا من هذا...وهيّا معي لنذهب إلى ذاك المكان الذي وصفه لنا صديقنا النّاجي.

الأصفر-وقد علته كآبة ونكس رأسه وازدادت تلك البقعة حُمرة حتى يخيّل أنها توشك أن تتفجّر دماً-: ولكني لا أستطيع الذهاب معك لأني لا أستطيع مغادرة منزلي هذا لأن بابه مُقفل عليّ، ومفتاحه مع سيدي.

البني: ومن سيدك هذا حتّى أذهب إليه وآخذ منه المفتاح وأفتح لكَ الباب لننطلق معاً.

الأصفر: إنّه بشري.

البني: بشري!! من جنس أولئك الذين يتربصون بنا صباحَ مساءَ لكي يفتكوا بنا؟

ولعلهم مُنذ نزل أبوهم آدم ضيفاً على أرضنا يطوّرون أسلحتهم لا لشيء إلّا لكي يفتكوا بنا!

الأصفر: لا لا إن سيدي ليس من أولئك، ولعله من جنسٍ آخر غير الجنس الذي تتحدث عنه ورآه صديقك النّاجي.

البني: وكيف ذلك؟

الأصفر: إنّه صنع لي منزلاً جميلاً، وهو يأتيني بالطعام والشراب بل وينظف لي منزلي ويمنع عنّي الأذى.

أوليس هو إذن غيرَ ذاك البشري الذي تتحدث عنه، وأخبرت أنّ مذهبه التربّص بك، وما أدراني لعلك ارتكبت في حقه ما أوجب عداوته لك كعداوة القط للفأر، وأُمّ الزوج لزوجةِ ابنها.

البني-وقد بدا عليه التعجب-: ما كنت أحسب أن في بني جنسنا أحداً يفكر بهذه الطريقة العصفورية الغريبة!

اعلم يا هذا أن البشري الذي تصفه بسيدك وتمدحه بل وتغمز فيّ من أجله قد سلبكَ حريتك وجعلك أسيراً عنده.

الأصفر: وما تلك الحرية التي تتحدث عنها؟

وهل هي شيء غير الطعام والشراب والمنزل ودفع الأذى؟

البنـــي: إنهـــا أن تحلّـــق فـــي الســـماء وتبحـــث عـــن رزقـــك فـــي خبايـــا الأرض متـــوكلاً علـــى ربـــك لا علـــى ســـيّدك الـــذي قـــد ينســـاك فتهلـــك جوعـــاً وعطشـــاً وكمـــداً، وقـــد ينســـاك خـــارج منزلـــه فتهلـــك حـــرّاً أو قرّاً.

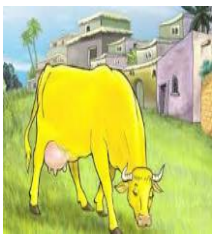

أضـــف إلـــى هـــذا أنّ ذاك البشـــريّ لا يعطيـــك إلّا بالمقـــدار الـــذي يأخـــذه منـــك حتـــى إذا لـــم يتبـــقَ فيـــك مـــا يســـتبقيك مـــن أجلـــه صـــار مصـــيرك مصـــير بقـــرةِ بنـــي إســـرائيل ذبحـــاً وتقطيعـــاً، غيـــر أنّـــه لـــن يضـــرب ببضَـــعْة منـــك ميتـــاً فيحيهـــا بل ستُلقى لتأكلك الكلاب والقطط.

الأصـــفر: مهـــلاً مهـــلاً يـــا هـــذا فقـــد أطنبـــتَ فمـــا أجـــدت ولا أطبـــت، وأي نفع يُرتجى منّي؟

فأنـــا لا لحـــمَ ولا حليـــبَ ولا بـــيضَ ولا شـــيء مـــن هـــذا ولا غيـــرَ هـــذا يرتجى مني.

البنـــي: إنّ للبشـــر وجوهـــاً للانتفـــاع بنـــا معاشـــرَ الطيـــر فـــوق مـــا ذكـــرت من اللحم والحليب والبيض.

الأصفر: ها قد عدت إلى إطنابك.

البنـــي: إن البشـــر يـــرونَ فـــي أشـــكالنا وألـــوان ريشـــنا مـــا يمتـــع أبصـــارهم، وفـــي صـــوتنا مـــا يمتـــع أســـماعهم فـــوق متعـــة بطـــنٍ ازدَرَدَ لحماً أو حليباً أو بيضاً.

أولا تـــرى ســـيدك يطيـــل النظـــر إليـــك والاســـتماع إلـــى صـــوتك الـــذي يجلب له راحة النفس وطمأنينة الروح؟

الأصـــفر: لقـــد شـــوّقتني إلـــى تلـــك التـــي ســـميتها الحريـــة.. ولكـــن كيـــف السبيل إليها ومفتاحها في يدي سيدي وهو على ما وصفت لي؟

البنـــي: لقـــد تفتـــق ذهنـــي العصـــفوري عـــن حيلـــة أرجـــو أن تُفلـــح وتنـــال بســـببها حريتـــك، وننطلـــق أنـــا وأنـــت إلـــى تلـــك الأرض التـــي وصـــفها لنا صديقنا النّاجي.

الأصفر: هاتِ ما عندك فما أراكَ إلّا ناصحاً مُخلصاً.

البنـــي: أرى أن تمتنـــع عـــن الطعـــام والشـــراب والغنـــاء، فـــإن صـــاحبك إذا رآك علـــى تلـــك الحـــال طلـــب لـــك الطـــب، فـــإن عجـــز الطـــب عـــن علاجـــك خلّـــى ســـبيلك، إذ لـــم يعـــد فيـــك مـــا يســـتبقيك لأجلـــه، فشـــكلك الحســـن ســـيكدّره جوعـــك، وصـــوتك الحســـن قـــد انقطـــع عنـــه، ولعلـــه عند ذلك يفتح لكَ الباب ويُطلقَ سراحك.

أخـــذ الأصـــفر بنصـــيحة البنـــي ومـــا هـــي إلّا أيـــام حتـــى تغيّـــر شـــكله الجميـــل ولـــم يعـــد يُســـمع صـــوت تغريـــده، فـــإذا بصـــاحبه يفـــتح لـــه بـــاب القفـــص ويـــدخل عليـــه قطّـــه الشـــرس ليفترســـه، ويُخلـــي مكانـــه لآخـــر يأكل ويغنّي كما يريد له سيده.

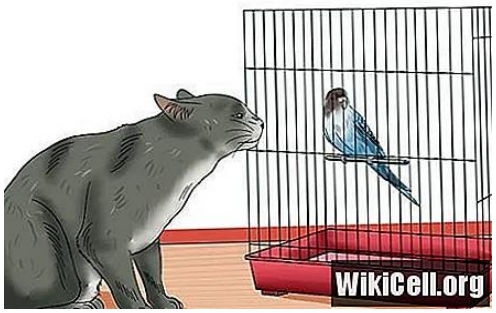

الفهرس

المقدمة..... ١

١- سوء الاختيار..... ٣

٢- منزل الزوجية..... ٧

٣- جريمة نسب..... ١١

٤- زوجة عمه..... ١٤

٥- والد زوجها..... ١٧

٦- أخت زوجته..... ٢٠

٧- الاتصال الأخير..... ٢٥

٨- أبو الحسن وزوجاته..... ٢٩

٩- تعدد الأزواج..... ٣٣

١٠- آباء وأبناء..... ٣٦

١١- الكأس الأولى..... ٣٨

١٢- هذه الحقيقة ولكن من يصدق؟ ٤٥

١٣- أسباب الحب..... ٤٦

١٤- اهتمام أم اتهام..... ٥٠

١٥- زواج مستعجل..... ٥٣

١٦- من بقايا مجزرة..... ٥٤

١٧- كتاب شيخ..... ٥٥

١٨- نفقة زوجية..... ٥٦

١٩- جريمة خطف..... ٥٨

٢٠- المجنونة.....٦٢
٢١- عجز جنسي.....٦٥
٢٢- الحسناء والوحش (بالمقلوب).....٦٨
٣٢- زوج مخادع.....٧٠

قصص من تلك الأيام

١-موقف مؤثر (م ع) ٧٤
٢-أنا جوعان.....٧٧
٣-بائع بنزين.....٨٠

وقال القلم

١-شخصية مؤثرة في حياتي.....٨٢
٢-الرجل الحكيم واختيار النساء.....٨٤
٣-الانتحار.....٨٩
٤-بين عصفورين.....٩٤

هذا الكتاب

في عالم الحقيقة والواقع ما يغني الكاتب
عن دخول عالم الخيال، واختراع شخصيات
وحكايات لها وجود
وإن هذا الكتاب يحوي قصصاً من الواقع
غير أن بعضها قد فاق الخيال
ولقد كان لي شرف نقلها من عالم القضاء
إلى عالم الأدب

شادي الدرّة